تبيّن مظهرًا من مظاهر حمق كلٍّ من الفريقين وعنادهم ومخالفتهم عن عمدٍ وإصرار تعاليم كلٍّ من الكتابين السّماويّين اللّذين أوحى الله تعالى بهما إلى كلٍّ من موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام . أمّا هذا المظهر من مظاهر الحمق والعناد فهو قول اليهود : ليست النّصارى على شيء ، والمعنى أنّ النّصارى ليست على شيءٍ يعتدّ به ويؤبه له ويعتمد عليه فى مجال الدّين . وعليه يكون النّصارى فى نظر اليهود على ضلال ، لأنّ اليهود بهذا القول ينكرون الإنجيل ويجحدون نبوّة عيسى عليه الصّلاة والسّلام ، والمعروف أنّ التّوراة مصدّقة للإنجيل ، فإنّ كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضًا ، وشاهدة ببشارة عيسى عليه السّلام ، ومن بعده ببشارة محمّد بن عبد الله ﷺ .

وفى المقابل زعمت النّصارى فى حقّ اليهود الشّيء نفسه وقالت : ليست اليهود على شيء . والمعروف أنّ الإنجيل شاهدٌ بصحّة نبوّة كلٍّ من موسى ومحمّد صلّى الله عليهما وسلّم ، وعليه يكون النّصارى يخالفون تعاليم الإنجيل الكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام .

وعلى غرار القول فى الآية الكريمة قبل السّابقة ﴿ تلك أمانيّهم ﴾ والّذى جاء فى هيئة جملة اعتراضيّة استدراكيّة تتميميّة ، وذلك إثر القول : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ﴾ يجيء هنا القول : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ وذلك إثر القول : ﴿ وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيءٍ ﴾ إنّ الطّامّة كبرى والبليّة عظمى بشأن كلٍّ من اليهود والنّصارى لأنّ مايقولونه ليس وليد جهلٍ وعدم علمٍ ، بل إنّه وليد علمٍ أكيدٍ ومتجدّد ، لأنّه موجودٍ فى كلٍّ من الكتابين السّماويّين اللّذين يقرؤهما ويفهم معناهما كلٌّ من اليهود والنّصارى ، وعليه يكون كلٌّ منهما على علمٍ بأنّ كلاّ من اليهود والنّصارى أتباع موسى وعيسى عليهما السّلام على شيءٍ لا كما زعم كلٌّ من الفريقين ويزعم . ومع أنّ سبب النّزول كما مرّ بنا يشير إلى مناسبةٍ معيّنةٍ نزلت فيها الآية الكريمة ، فإنّ العبرة وراء ذلك بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، ومن ثمّ قيل بشأن الآية الكريمة : هى عامّة فى كلّ اليهود وكلّ النّصارى[1] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٥٢ .

وما معنى أن يصرّ كلٌّ من اليهود والنّصارى على هذا القول : ليست النّصارى على شيء ، وليست اليهود على شيء ، مخالفين تعاليم الكتابين السّماويّين ؟ معنى ذلك أنّهم وهم الّذين تنكّروا للعلم الّذى اصطفاهم به وقالوا بأهوائهم ، قد تساووا بالّذين ليس لديهم أصلاً كتابٌ سماوىّ ، ولا هدىٌ ربّانىّ ، ولا علمٌ نبوىّ ، كمشركى العرب . وهذا ما نبّهت عليه الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ إنّ مثل القول الّذى قاله كلٌّ من اليهود والنّصارى قد قاله الّذين لا يعلمون . والآية الكريمة تصف هؤلاء القائلين بأنّهم لا يعلمون ، كمشركى العرب ومن لفّ لفّهم . ونحن نتبيّن من هذا القول : ﴿ كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ نعيًا على هؤلاء المشركين بسبب جهلهم وبسبب صدور قولهم عن هذا الجهل وعن عدم العلم . فإذا كان القائلون عن عدم علمٍ محلّ لومٍ شديدٍ وتأنيبٍ أكيد ، خاصّةً وأنهم يقولون قولاً عظيمًا ، فكيف بمقدار اللّوم والتّأنيب اللّذين ينبغى أن يكونا من نصيب أهل الكتاب ، الّذين يخالف كلٌّ منهم ، بدافع العصبيّة والعناد ، تعاليم كتابه السماوىّ ، المأمور بتطبيق تعاليمه ، كى يقول فى أخطر مسألة ، مسألة الدّين والعقيدة ، ما يعلم أنّه مخالفٌ كلّ المخالفة للكتاب السّماوىّ الّذى يتلوه ؟

إنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يفصل بين اليهود والنّصارى ، ويلحق بهم سواهم ، يوم القيامة ، فيما كانوا فيه يختلفون فى الحياة الدّنيا من شئون الدّين والاعتقاد .

وحينما يجرؤ كلٌّ من اليهود والنّصارى على أن يقولوا لبعضهم ما قالوا ، فلا يستغرب منهم أن يقولوا معًا الشّىء نفسه للمسلمين . إنّ كلاً منهم خالف تعاليم كتابه السّماوىّ بشأن اتّهام الفريق الآخر بأنّه ليس على شيء ، وإنّ كلاً منهما ، امتدادًا لتلك المخالفة ، ليقول الشّىء ذاته فى حقّ المسلمين ، مع علمه بأنّه متعمّد للمخالفة ، ومصرٌّ على أن يتساوى بالّذين لا يعلمون من الّذين ليس لديهم هدىٌ سماوىّ ولا كتابٌ منير . إنّ كلاً من الفريقين لا يعنيه فى شيءٍ مثل قوله تعالى[1] : ﴿ ورحمتى وسعت كلّ شيءٍ فسأكتبها

---

(١) سورة الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .

للّذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون . الّذين يتّبعون الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم ، فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ . وقال تعالى[1] : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنّى رسول الله إليكم مصدّقًا لما بين يدىّ من التّوراة ومبشّرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين ﴾ .

الآيــة رقــم (١١٤)

قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمُهُ وسَعَى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين . لهم فى الدّنيا خزىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾ .

ومن أظلم : رفع بالابتداء ، وأظلم خبره . والمعنى لا أحد أظلم[2] فلا يراد بالاستفهام هنا حقيقته ، وإنّما هو بمعنى النّفى كما قال : فهل يهلك إلاّ القوم الفاسقون ، أى ما يهلك[3] « والظُّلم عند أهل اللّغة وكثيرٍ من العلماء وضعُ الشّىء فى غير موضعه المختصّ به إمّا بنقصان أو بزيادة ، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه .... والظُّلم يقال فى مجاوزة الحقّ الّذى يجرى مجرى نقطة الدّائرة ، ويقال فيما يَكْثُر وفيما يَقِلّ من التّجاوز ، ولهذا يستعمل فى الذّنب الكبير وفى الذّنب الصّغير .... قال بعض الحكماء : الظّلم ثلاثة . الأوّل : ظُلْمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى ، وأعظمه الكفر والشّرك والنّفاق ، ولذلك قال : ﴿ إنّ الشّرك لظُلْمٌ عظيم ﴾ .... والثّانى : ظُلْمٌ بينه وبين النّاس ، وإيّاه قصد بقوله : ﴿ وجزاء سيّئةٍ سيّئة ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إنّه لا يحبّ الظّالمين ﴾ ، وبقوله : ﴿ إنّما

---

(١) سورة الصّفّ ٦

(٢) تفسير القرطبىّ ٤٦٤ .

(٣) البحر المحيط ١/٣٥٧ .

السَّبيل على الّذين يظلمون النّاس ﴾ ... والثّالث : ظلمٌ بينه وبين نفسه وإيّاه قصد بقوله : ﴿ فمنهم ظالمٌ لنفسه ﴾ .... وكلّ هذه الثّلاثة فى الحقيقة ظلمٌ للنّفس .... »[١] .

مِمن منع : من فى قوله : ممّن منع موصولةٌ بمعنى الّذى[٢] والمنع : الحيلولة بين المريد ومراده[٣] .

مساجد الله : أضيفت المساجد لله على سبيل التّشريف كما قال تعالى : ﴿ وأنّ المساجد لله ﴾[٤] وخصّ بلفظ المسجد لأنّ السّجود أعظم الهيئات الدّالّة على الخضوع والخشوع والطّواغية التّامّة . ألا ترى إلى قوله ﷺ : (أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد) ، وهى حالةٌ يلقى فيها الإنسان نفسه للانقياد التّامّ ويباشر بأفضل ما فيه وأعلاه وهو الوجه التّراب الّذى هو موطىء قدميه[٥] ويقول القرطبىّ[٦] : « وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه . وقيل الكعبة ، وجمعت لأنّها قبلة المساجد أو للتّعظيم ، وقيل : المراد سائر المساجد . والواحد مسجد بكسر الجيم . ومن العرب من يقول مسجَد ، بفتحها » وكلّ موضعٍ يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له يسمّى مسجدًا . قال ﷺ : جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا . أخرجه الأئمّة . وأجمعت الأمّة على أنّ البقعة إذا عيّنت للصّلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصّة بربّها وصارت عامّة لجميع المسلمين[٧] .

ولنا بإذن الله تعالى عودة متأنّية إلى لفظة مساجد ، لأنّها المفتاح الّذى يوصل به إلى فتح معانى الآية الكريمة بإذن الله تعالى .

أن يذكر فيها اسمه . يقول الأخفش[٨] : « إنّما هو : من أن يذكر فيها اسمه . ولكنّ حروف الجرّ تحذف مع أن كثيرًا ، ويعمل ما قبلها فيها حتّى تكون فى موضع نصب ..... » ويقول الزّمخشرىّ[٩] : « أن يذكر : ثانى مفعولى منع ، لأنّك تقول :

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٣١٦ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٥٧ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٥٥ (٤) البحر المحيط ١ / ٣٥٨ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٥٨ (٦) تفسير القرطبى ص ٤٦٤ .
(٧) تفسير القرطبىّ ٤٦٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٦ .
(٨) معانى القرآن ٢ / ١٤٤ .
(٩) الكشّاف ١ / ٢٣٤ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٥٨ .

منعته كذا ، ومثله : وما منعنا أن نرسل . وما منع النّاس أن يؤمنوا » .

وسعى : السّعى : المشى بسرعة ، وهو دون العدو ، ثمّ يطلق على الطّلب كما قال امرؤ القيس :

فلو أنّما أسعى لأدنى معيشةٍ كفانى ، ولم أطلب ، قليلٌ من المال
ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالى

فسّره الشّرّاح بالطّلب[١] .

وقد نبّه الأخفش [٢] إلى مراعاة لفظ « مَنْ » فى القول : « منع » و « سعى » وإلى مراعاة معناها فى القول : أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين ، : « فجعله جميعًا ، لأنّ مَنْ تكون فى معنى الجماعة »[٣] .

لهم فى الدّنيا خزى : هوانٌ بالقتل والسّبى والجزية[٤] وانكسارٌ وهُون وذلّ[٥] وبعدٌ ومقت . يقال : « أخزاه الله ، أى أبعده ومقته . والاسم الخزى . ومن هذا الباب قولهم : خَزِى الرّجل : استحيا من قبح فِعله خَزايةً فهو خزيان ، وذلك أنه إذا فعل ذلك واستحيا تباعد ونأى »[٦] .

عذاب : فى أثناء حديثنا عن الآية الكريمة السّابعة من هذه السّورة الكريمة تحدّثنا عن معنى هذه اللّفظة . ويمكن إيجاز ما يتعلّق باللّفظة على النّحو التّالى .

العذاب مشتقّ من الحبس والمنع . قال الخليل : العذاب أصله المنع ، يقال : عَذَب الفرس ، امتنع من العلف[٧] من شدّة العطش[٨] وسمّى العذاب عذابًا لأنّ صاحبه يُحْبَس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها[٩] وحكى الخليل :

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٥٥ (٢) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٤ .
(٣) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٤ .
(٤) الجلالين وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤٦٦ والبحر المحيط ١ / ٣٥٩ .
(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ١٤٧ .
(٦) معجم مقاييس اللّغة « خزو » ٢ / ١٧٩ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٦ .
(٨) معجم مقاييس اللّغة « عذب » ٤ / ٢٥٩ .
(٩) تفسير القرطبىّ ص ١٦٧ .

عذّبته تعذيبًا ، أى فطمته . وهذا من باب الامتناع من المأكل والمشرب[١] يقال فى اللّغة : أعذبه عن كذا أى احبسه وامنعه . ومنه سمّى عذوبة الماء لأنّها قد أُعْذِبت . واستُعْذِب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه[٢] ومنه الماء العذب « لأنه يقمع العطش ويردعه بِخِلاف المِلح فإنّه يزيده »[٣] .

مناسبة الآية الكريمة .

بالنّظر إلى سبب نزول الآية الكريمة وذهاب فريق من العلماء إلى كون الآية الكريمة تشير إلى وقوف أهل الكتاب من النّصارى فى صفّ المجوس ضدّ اليهود وهم أهل كتاب ، يتبيّن علاقة الآية الكريمة بسابقتها .

إنّ الآية الكريمة السّابقة إذا كانت قد بيّنت أنّ النّصارى قد قالوا : ليست اليهود على شىء ، فإنّ هذه الآية الكريمة تبيّن أنّهم قد تجاوزوا القول غير الحميد إلى الفعل من الجنس ذاته . فلننظر إلى ما قيل فى سبب النّزول .

سبب النّزول .

يقول القرطبىّ[٤] : « واختلف النّاس فى المراد بهذه الآية وفيمن نزلت . فذكر المفسّرون أنّها نزلت فى بختنصّر لأنّه كان أخرب بيت المقدس وقال ابن عبّاس وغيره : نزلت فى النّصارى . والمعنى كيف تدّعون أيّها النّصارى أنّكم من أهل الجنّة وقد خرّبتم بيت المقدس ومنعتم المصلّين من الصّلاة فيه . ومعنى الآية على هذا التّعجّب من فعل النّصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنّما فعلوا ما فعلوا عداوةً لليهود . روى سعيدٌ عن قتادة قال : أولئك أعداء الله النّصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصّر البابلىّ المجوسىّ على تخريب بيت المقدس . وروى أنّ هذا التّخريب بقى إلى زمن عمر رضى الله عنه . وقيل : نزلت فى المشركين إذ منعوا المصلّين والنّبىّ ﷺ

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « عذب » ٤ / ٢٦٠ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٦٧ (٣) الكشّاف ١ / ١٢٦ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٤ وانظر تفسير الطّبرى ١ / ٣٩٧ وتفسير ابن كثير ١ / ١٥٦ .

وصدّوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وقيل : المراد من منع من كلّ مسجدٍ إلى يوم القيامة وهو الصّحيح ، لأنّ اللّفظ عامٌّ ورد بصيغة الجمع . فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف . والله تعالى أعلم » .

وهكذا يتبيّن أنّ القرطبيّ بعد أن ذكر الآراء الثّلاثة للعلماء من كون الآية الكريمة تشير إلى النّصارى ، أو إلى مشركى قريش أو إلى كلّ من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها إلى يوم القيامة ، رجّح الرّأى الأخير . ومن الّذين رجّحوا الرّأى الأوّل الطّبرىّ ، ففى رأى ابن جريرٍ أنّ الآية الكريمة تشير إلى النّصارى الّذين أعانوا بختنصّر البابلى المجوسىّ على تخريب بيت المقدس . وهذا الرّأى ينسب أساسًا إلى ابن عبّاس[١] ويعتمد الطّبرىّ فى هذا الرّأى على دليلين أحدهما أنّ مشركى قريش لم يسعوا قطّ فى تخريب المسجد الحرام ، وثانيهما أنّ السّياق قبل وبعد يتحدّث عن النّصارى[٢] ومن الّذين رجّحوا الرّأى الثّانى ابن كثير ، ففى رأى ابن كثير أنّ الآية الكريمة تشير إلى قريش الّذين منعوا النّبىّ ﷺ الصّلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام . وهذا الرّأى ينسب أساسًا إلى ابن عبّاس كذلك[٣] وقد ناقش ابن كثير رأى الطّبرىّ الّذى لم يقبله . وممّا قال فى ردّ رأى ابن جرير[٤] : « وأمّا اعتماده على أنّ قريشًا لم تسع فى خراب الكعبة ، فأىّ خرابٍ أعظم ممّا فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى : وما لهم ألاّ يعذّبَهُمُ الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلاّ المتّقون ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ..... فإذا كان من هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها فأىّ خرابٍ لها أعظم من ذلك ؟ وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنّما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدّنس والشّرك » .

ونحن من جانبنا نودّ أن نرسل دلونا ضمن الدّلاء ، ونبادر إلى القول إنّ الآية الكريمة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٧ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٦ .

تتضمّن درسًا من أعظم الدّروس الّتى ينبغى أن يعيها المسلمون جيدًا ، وهو درس ذو علاقةٍ متينةٍ بدين الإسلام النّاسخ للدّيانات السّماويّة السّابقة ، ومن باب أولى غير السّماويّة . وإنّ محور حديثنا يدور حول لفظة مساجد الّتى جاءت بصيغة الجمع فى الآية الكريمة : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ وها نحن أولاء نعود — حسب وعدنا — إلى هذه اللّفظة ويكون حديثنا تحت هذا العنوان .

الحكمة من استعمال لفظة مساجد فى الآية الكريمة .

أوّلاً : من المعروف أنّ السّين والجيم والدّال أصلٌ واحدٌ مطّرد يدلّ على تطامنٍ وذلّ . يقال : سجد إذا تطامن وكلّ ما ذلّ فقد سجد[١] وجُعِل ذلك عبارةً عن التّذلّل لله وعبادته ، وهو عامٌّ فى الإنسان والحيوانات والجمادات . وذلك ضربان سجودٌ باختيار وليس ذلك إلاّ للإنسان وبه يستحقّ الثّواب نحو قوله : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ . أى تذلّلوا له . وسجود تسخيرٍ وهو للإنسان والحيوانات والنّبات ، وعلى ذلك قوله : ﴿ ولله يسجد من فى السّماوات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ وقوله : ﴿ يتفيّأ ظلاله عن اليمين والشّمائل سجّدًا لله ﴾ فهذا سجود تسخير ، وهو الدّلالة الصّامتة النّاطقة المنبّهة على كونها مخلوقة وأنّها خلقُ فاعلٍ حكيم . وقولُه : ﴿ ولله يسجد ما فى السّماوات وما فى الأرض من دابّةٍ والملائكةُ وهم لا يستكبرون ﴾ ينطوى على النّوعين من السّجود والتّسخير والاختيار .... وخُصّ السّجود فى الشّريعة بالرّكن المعروف من الصّلاة وما يجرى مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشّكر ، وقد يعبّر به عن الصّلاة بقوله : وأدبار السّجود . أى أدبار الصّلاة »[٢] .

ثانيًا : المسجد موضع الصّلاة اعتبارًا بالسّجود[٣] .

ثالثًا : جاء فى سورة يوسف[٤] قوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدا ﴾ « أى متذللّين ، وقيل : كان السّجود على سبيل الخدمة فى ذلك الوقت

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « سجد » ٣ / ١٣٢ وانظر تفسير القرطبى ص ٢٤٨ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٢٤ (٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٢٤ .

(٤) الآية ١٠٠ .

سائغًا »[١] ونحن نميل إلى الرّأى الثّانى وكون السّجود بقصد التّعظيم كان آنذاك جائزًا . وعليه يكون السّجود من جنس أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا سجود تعظيم وتكريم لآدم عليه السّلام وذلك فى مثل قوله تعالى[٢] : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ والمعروف أنّ سورة يوسف عليه السّلام أشارت إلى مجموعةٍ من الأمور ، لشريعة محمّد بن عبد الله ﷺ حكمٌ فيها خاصٌّ بها . وهذه الأمور هى حدّ السّارق . فإذا كانت الشّريعة الإبراهيميّة تسترق السّارق مدّة عامٍ واحد ، فإنّ حدّ السّارق فى الشّريعة المحمّديّة أن تقطع يده اليمنى على نحو ما بيّنت سورة المائدة[٣] وطبّقت سنّةُ المصطفى ﷺ . وقد فهم من قوله تعالى[٤] على لسان إخوة يوسف : ﴿ يا أيّها العزيز مسّنا وأهلنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مزجاةٍ فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجزى المتصدّقين ﴾ أنّ الصّدقة تجوز على آل إبراهيم ، والمعروف أنّ الصّدقة غير جائزةٍ على آل محمّد ﷺ . كما فُهِم من سجود والدى يوسف وإخوته له عليه الصّلاة والسّلام سجود تعظيم وإجلال أنّ هذا النّوع من التّذلّل جائزٌ فى الشّريعة الإبراهيميّة . ومن العلماء من ذهب إلى كون الإسلام وحده هو الّذى منع السّجود للعباد دليلاً على التّعظيم والاحترام . يقول القرطبىّ[٥] : « واختلف النّاس فى كيفيّة سجود الملائكة لآدم بعد اتّفاقهم على أنّه لم يكن السّجود عبادة ، فقال الجمهور : كان هذا أمرًا للملائكة بوضع الجباه على الأرض ، كالسّجود المعتاد فى الصّلاة ، لأنّه الظّاهر من السّجود فى العرف والشّرع .... وقال قوم لم يكن هذا السّجود المعتاد اليوم ، الّذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنّه مبقى على أصل اللّغة فهو من التّذلّل والانقياد ... واختلف أيضًا هل كان ذلك السّجود خاصًّا بآدم عليه السّلام فلا يجوز السّجود لغيره من جميع العالم إلاّ لله تعالى ، أو كان جائزًا بعده إلى زمان يعقوب عليه السّلام لقوله تعالى : ورفع أبويه على

---

(١) مفردات الرّاغب ص ٢٢٤
(٢) سورة البقرة ٣٤ .
(٣) الآيات ٣٨ — ٤٠
(٤) سورة يوسف ٨٨ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٢٥٠ .

العرش وخرّوا له سجّدا . فكان آخر ما أبيح من السّجود للمخلوقين ؟ والّذى عليه الأكثر أنّه كان مباحًا إلى عصر رسول الله ﷺ » .

رابعًا : أما وقد تبيّن أنّ السّجود بمعنى التّذلّل للمخلوقين كان مباحًا إلى عصر المصطفى ﷺ ، وأنّ السّجود فى ظلّ الإسلام خلص لله تعالى وحده لا شريك له ، « لأنّ السّجود أعظم الهيئات الدّالّة على الخضوع والخشوع والطّواعية التّامّة ، ألا ترى إلى قوله ﷺ : (أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد) ، وهى حالة يلقى فيها الإنسان نفسه للانقياد التّامّ ويباشر بأفضل ما فيه وأعلاه ، وهو الوجه ، التّرابَ الّذى هو موطئ قدميه »[1] واعتبارًا بهذا الرّكن المعروف من الصّلاة وما يجرى مجرى ذلك ، أطلق لفظ مسجد فى الإسلام على موضع الصّلاة[2] أما وقد تبيّن كلّ ذلك فهل لفظ مسجد الّذى يطلق على مكان العبادة فى الإسلام يطلق على مكان العبادة فى الدّيانات السّماويّة السّابقة ؟ وهل ثمّة سجودٌ فى عبادات تلك الدّيانات على النّحو المعروف فى الإسلام ، وهل ثمّة ركوع ؟

للإجابة عن الشّقّ الأوّل من السّؤال نحن بحاجةٍ إلى أن نتأمّل قوله عزّ من قائل فى سورة الحجّ[3] : ﴿ ولولا دفعُ اللهِ النّاسَ بعضهم ببعضٍ لَهُدّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيرا . ولَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره . إنّ الله لقويٌّ عزيز . الّذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتَوُا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور ﴾ ومعنى دفع الله بعض النّاس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة ، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم وعلى متعبّداتهم فهدموها و لم يتركوا للنّصارى بيعًا ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد[4] . وبهذا يتبيّن أنّ لفظ مسجد خاصٌّ بمكان العبادة فى الإسلام مقصورٌ عليه ، فليس هو من باب المشترك اللّفظى ، بدليل أنّ الآية الكريمة نصّت على أسماء أماكن العبادة فى اليهوديّة والنّصرانيّة ، واستعملت لفظة « مساجد » دليلاً على مكان

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٥٨

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٢٤ .

(٣) الآية ٤٠ ، ٤١

(٤) الكشّاف ٢ / ٣٥٠ .

العبادة فى الإسلام وحده .

فإذا تحوّلنا للإجابة عن الشّق الثّانى من السّؤال وهو : هل ثمّة سجودٌ أو ركوع فى صلاة كلٍّ من اليهود والنّصارى ؟ فإنّ الجواب بناءً على المشاهدة وسؤال ذوى الاختصاص : ليس فى الصّلاة فى اليهوديّة أو النّصرانيّة سجودٌ بالمعنى المتعارف عليه فى الإسلام ، بل ليس ثمّة ركوع على نحو الموجود فى الإسلام .

ونخلص من الإجابة عن السّؤال السّابق بشقّيه إلى أنّ لفظة مسجد مقصورة الدّلالة على مكان العبادة فى الإسلام وأنّ هيئة السّجود بمعناه الشرعىّ فى الإسلام ، مقصورةٌ على الإسلام .

وبناءً على الاستنتاج الّذى انتهينا إليه قد يتبادر إلى الذّهن أنّا بشأن الآية الكريمة نرى رأى القرطبىّ الّذى ذهب إلى أنّ المراد المنع من كلّ مسجدٍ إلى يوم القيامة ، أو رأى ابن كثير الّذى ذهب إلى أنّ المراد كفّار قريش الّذين منعوا النّبىّ ﷺ الصّلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام . الحقيقة أنّا نرى أنّ الآية الكريمة تشمل الرّأيين معًا ، فهى تعنى كفّار قريش وكلّ الّذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا فى خرابها إلى يوم الدّين ، ونرى كذلك أنّ الآية الكريمة تشمل النّصارى الّذين أعانوا ملك بابل بختنصّر المجوسى ضدّ اليهود ، أى أنّ الآية الكريمة تشمل الآراء الثّلاثة ، رأى الطّبرىّ ، ورأى ابن كثير ورأى القرطبىّ . وهؤلاء المفسّرون يمثّلون الآراء الثّلاثة لعلماء الأمّة فى معنى الآية الكريمة .

ولعلّك تبيّنت دليلنا على كون الآية الكريمة تشمل كفّار مكّة الّذين حالوا بين المصطفى ﷺ وبين المسجد الحرام ، وتشمل كلّ الّذين يمنعون مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه جلّ وعلا . أمّا هذا الدّليل فهو أنّ لفظة مسجد مقصورة الدّلالة على مكان العبادة فى الإسلام ، وهى مأخوذة من صفة السّجود ، الرّكن المعروف من الصّلاة وما يجرى مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشّكر . فما هو الدّليل على كون الآية الكريمة تشمل النّصارى وليس فى الآية الكريمة ذكرٌ للصّوامع ولا للبيع الّتى ذكرتها آية سورة الحج ؟

وإليك الدّليل من القرآن الكريم . إنّه باستعراض استعمالات القرآن الكريم لفظة مسجد ، يتبيّن أنّ لفظة مسجد فى آيتين اثنتين قد استعملتا استعمالاً فريدا ، وفى هذا الاستعمال الفريد الدّليل على ما ذهبنا إليه من كون لفظة « مساجد » فى آية سورة البقرة واسعة المدلول . وأولى الآيتين الكريمتين فى سورة الإسراء[١] وهى ذات علاقةٍ ببنى إسرائيل ، قال تعالى[٢] : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها . فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة وليتبّروا ما عَلَوْا تتبيرا ﴾ . وثانية الآيتين الكريمتين فى سورة الكهف ، وهى ذات علاقة بالنّصارى أتباع عيسى ابن مريم عليه السّلام . قال تعالى[٣] : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ السّاعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانًا ربّهم أعلم بهم . قال الّذين غلبوا على أمرهم لنتّخذنّ عليهم مسجدا ﴾ ويلاحظ بشأن آية سورة الإسراء أنّ الآية الكريمة تعدل عن استعمال اللّفظ الّذى يدلّ على مكان العبادة فى اليهوديّة إلى اللّفظ الّذى يدلّ على مكان العبادة فى الإسلام . ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّةٍ وليتبّروا ما علوا تتبيرا ﴾ كما يلاحظ بشأن آية سورة الكهف أنّ الآية الكريمة تعدل عن استعمال اللّفظ الّذى يدلّ على مكان العبادة فى النّصرانيّة إلى اللّفظ الّذى يدلّ على مكان العبادة فى الإسلام : ﴿ قال الّذين غلبوا على أمرهم لنتّخذنّ عليهم مسجدا ﴾ ولا ننسى أنّ آية سورة الحجّ الأربعين قد استعملت الألفاظ الدّالّة على أماكن العبادة فى الدّيانات السّماويّة الثلاث . ولعلّ الحكمة قد تجلّت من عدول القرآن الكريم عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى كلٍّ من اليهوديّة والنّصرانيّة ، حينما يكون ثمّة مندوحة للعدول ، إلى استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام « مسجد » لأنّ فى العدول إلى استعمال لفظ مسجد وإيثاره دليلاً جديدًا على كون الإسلام ناسخًا للدّيانات السّماويّة السّابقة ، والقرآن الكريم

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة فى كتابنا : تأمّلات فى سورة الإسراء بعنوان : الحكمة من استعمال لفظة مسجد ص ٤٤ وكذلك فى بحثنا بعنوان : معانٍ أخر للفظة مسجد فى القرآن الكريم .

(٢) سورة الإسراء ٧ (٣) سورة الكهف ٢١ .

مهيمنًا على الكتب السّماويّة السّابقة ، ومحمّد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، هو الوارث لمقدّسات الدّيانات السّماويّة السّابقة ، وفى مقدّمتها المسجد الأقصى والقدس الشّريف . فعلى المسلمين أن يعدّوا ما استطاعوا من قوّة من أجل استرداد المسجد الأقصى والقدس الشّريف وسائر المقدّسات الإسلاميّة ، فها هو ذا القرآن الكريم يجيء فيه استعمال لفظ المسجد فى أثناء حديثه عن المسجد الأقصى والقدس الشّريف ، بعد بعثة المصطفى ﷺ وقبل بعثته . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ سبحان الّذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السّميع البصير ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّةٍ وليتبّروا ما علوا تتبيرا ﴾ .

وإنّ الحكمة الّتى تبيّناها وراء استعمال آية سورة الإسراء السّابعة وآية سورة الكهف الحادية والعشرين لفظة مسجد وعدو لهما عن استعمال اللّفظتين اللّتين تدلاّن على مكان العبادة فى اليهوديّة والنّصرانيّة ، هى الّتى نتبيّنها وراء استعمال آية سورة البقرة لفظة المساجد : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ﴾ إنّ لفظة مساجد تدلّ من ناحيةٍ على مشركى قريش الّذين منعوا المصلّين والنّبىّ ﷺ وصدّوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية[3] « عن ابن عبّاس أنّ قريشًا منعوا النّبىّ ﷺ الصّلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام »[4] وعلى كلّ الّذين يقومون بالمنع نفسه بشأن المسجد الحرام وغير المسجد الحرام من المشركين وسواهم ، وتدلّ من ناحيةٍ أخرى على النّصارى الّذين حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصّر البابلىّ المجوسىّ على تخريب المقدس[5] إنّ لفظة « مساجد » تدلّ على المشركين لأنّ مشركى قريشٍ أساسًا هم الّذين منعوا المصطفى ﷺ والمؤمنين من المسجد الحرام ، وتدلّ على النّصارى لأنّ هذه اللّفظة « مساجد » تستعملها الآية الكريمة الّتى تريد أن تبيّن تمادى النّصارى وهم أهل كتاب

---

(١) سورة الإسراء ١
(٢) سورة الإسراء ٧ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٥
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٦ .
(٥) تفسير الطّبرى ١ / ٣٩٧ .

فى عدائهم لليهود وهم أهل كتاب بأن أعانوا فعلاً المجوس ضدّ اليهود ، وذلك بعد أن بيّنت الآية الكريمة السّابقة عداء النّصارى لليهود وعداء اليهود للنّصارى قولاً ، قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلون الكتاب ﴾ .

والآية الكريمة تقرّر أنّه لا أحد أظلم لنفسه وللآخرين من الّذى منع مساجد الله تعالى وبيوته جلّ وعلا الّتى أذن أن ترفع ، منع أن يذكر فيها اسمه جلّ وعلا وسعى فى خرابها . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة « سعى » وهى فى مجال المحسوسات تدلّ على نوعٍ من الحركة بين المشى والعدو ، وهى إلى العدو أقرب . وقد تجاوزت الآية الكريمة المشى لأنّه يقصر عن السّعى . وتجاوزت الآية الكريمة العدو ، لأنّ جملة سعى الّتى تدلّ على معنًى غير بعيد من معنى عدا تتضمّن القدرة على الإيحاء باستمرار السّعى ودوامه ، فالمعروف فى مجال المحسوسات أنّ المرء يستطيع أن يسعى لفترةٍ طويلة ، ولا يستطيع أن يعدو لفترة تقارب فترة السّعى فضلاً عن أن تساويها . وبذلك توحى الآية الكريمة باستعمالها جملة « سعى » بفرط حماس هذا السّاعى وشدّة عداوته ودوام كيده بمنع مساجد الله تعالى ، الّتى تضيفها الآية الكريمة إليه جلّ وعلا إضافة تشريف ، أن يذكر فيها اسمه تعالى بالصّلاة وبالتّسبيح وما إليهما ، والسّعى الحثيث ، والعمل الدّائب ، والكيد المستمرّ من أجل خرابها بدلاً من عَمْرها ..

وحينما تذكر المساجد ويشار إلى منع ذكر الله تعالى فيها ، ففى ذلك إشارة إلى كون المساجد عامرةً أساسًا من حيث البناء والتّشييد ، ومن حيث ذكر اسم الله تعالى فيها ، فعمارة مساجد الله تعالى ذات شقّين مادىّ برفعها ، ومعنوىّ بأداء الصّلاة فيها . وحينما تنصّ الآية على سعى الظّالم إلى خراب بيوت الله تعالى ، فالمتبادر إلى الذّهن حين ذكر الخراب وهو ضدّ العَمْر ، أنّ المراد إلحاق الأذى الشّديد ببناء المسجد ذاته وتحويله خرابًا يبابًا . والعادة جرت أنّ من يفكّر فى مجرّد خراب المساجد بهذا المعنى وقبل أن يسعى عملاً فى خرابها من الوجهة الماديّة ، يكون قد تمكّن من خرابها معنويًّا بصرف المصلّين عن ارتياد بيوت الله تعالى أو منعهم ، وبالحيلولة بين بيوت الله تعالى الّتى أذن الله تعالى أن ترفع ، وبين

قيامها برسالتها . وبهذا يتبيّن الظّلم الشّديد الّذى تورّط فيه هذا المانع السّاعى فى خراب بيوت الله تعالى .

ومع أنّ رفع بيوت الله تعالى وبناءها أمرٌ غايةٌ فى الأهميّة ، فإنّ الأمر الّذى هو أهمّ من ذلك عمارتُها بالصّلاة فيها . والقرآن الكريم قد قرّر هذه الحقيقة حينما أحبط الله جلّ وعلا عمارة المشركين المسجد الحرام ، وبيّن العمارة الحقيقيّة للمساجد . جاء فى سورة التّوبة[1] قوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يَعْمُرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر . أولئك حَبِطَتْ أعمالهم وفى النّار هم خالدون . إنّما يَعْمُرُ مساجد الله من آمن بالله واليومِ الآخِرِ وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة و لم يخش إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سِقاية الحاجّ وعمارةَ المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله . والله لا يهدى القوم الظّالمين . الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشّرهم ربّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم . خالدين فيها أبدًا . إنّ الله عنده أجرٌ عظيم ﴾ إنّ آيات سورة التّوبة تبيّن أنّه فى حال عمارة مساجد الله تعالى فإنّ مرحلة عمارة المساجد معنويًّا بأداء الصّلوات فيها أحسن المرحلتين ، وإنّ آية سورة البقرة تبيّن أنّه فى حال السّعى ــ لا سمح الله ــ فى خراب مساجد الله تعالى فإنّ مرحلة خراب المساجد ماديًّا ، بإزالتها من الوجود نهائيًّا ، أسوأ المرحلتين .

والآية الكريمة فى جزئيّتها الثّانية : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين ﴾ تقرّر أنّ هؤلاء الظّالمين ، من مشركين وسواهم ، ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا تلك المساجد ، إلاّ خائفين ، بل ما كان ينبغى أن يدنوا من حمى بيوت الله تعالى إلاّ والخوف ملء ثيابهم ، والرّعب ملء صدورهم من المؤمنين المتّقين الّذين يجاهدون فى سبيل الله تعالى ولا يخافون لومة لائم . إنّ المسلمين الّذين يشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله ، لو كانوا مؤمنين حقًّا ، مطبّقين تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ، ولو أنّهم صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه لصدقهم جلّ وعلا وعده فى مثل

---

(١) الآيات ١٧ ــ ٢٢ .

قوله عزّ من قائل[١] : ﴿ وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفّنهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ إنّ المؤمنين حينما يصدقون ما عاهدوا الله تعالى عليه ، على نحو فعل أصحاب المصطفى ﷺ الّذين أثنى الله تعالى عليهم فى قوله عزّ من قائل[٢] : ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا . ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . إنّ الله كان غفورًا رحيما ﴾ إنّ المؤمنين حينما يصدقون ما عاهدوا الله تعالى عليه يصدقهم جلّ وعلا وعده ، فتكون مساجد الله تعالى آمنةً عامرة . أمّا حينما لا يطبّق المسلمون تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين وينكصون عن الجهاد فى سبيل الله تعالى على نحو نكوصهم اليوم ، فإنّ النّتيجة الحتميّة هى الّتى نعيشها بالفعل هذه الأيّام ، على نحو ما بيّن المصطفى ﷺ الّذى لا ينطق عن الهوى ، بأن تتداعى علينا الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، وهذه هى حالنا اليوم ، وبأن يمنع خصوم الإسلام مساجد الله تعالى أن يذكر فيه اسمه جلّ وعلا ويسعوا فى خرابها ، على نحو ما يفعل الصّهاينة اليوم بالمسجد الأقصى وبسائر بيوت الله تعالى والمقدّسات الإسلاميّة الّتى ترزح تحت نيرهم ، وعلى نحو ما يفعل غير الصّهانية من الّذين ينتمون إلى الإسلام حينما لا يتورّعون عن هدم بيوت الله تعالى على رءوس المصلّين فيها الدّاخلين الباحثين عن الأمان والأمن .

إنّ الجزئيّة الكريمة تقول للمؤمنين : إنّكم حينما تقومون برسالتكم على الوجه الأكمل فإنّ الله سبحانه وتعالى سيؤيّدكم بنصره وستكون بيوت الله تعالى قاطبة فى سلامةٍ وأمان . أمّا حينما لا تقومون برسالتكم على نحو ما أنتم عليه الآن ، فإنّ عدم السّلامة والأمان سوف يتجاوزكم إلى بيوت الله تعالى حينما يمنع الظّالمون ــ الّذين ساموكم الخسف وساءوا وجوهكم ــ مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون فى خرابها .

ولا نودّ أن نكثر من ضرب الأمثلة من الواقع والتّجربة على ما قرّرته الآية الكريمة ،

---

(١) سورة النّور ٥٥ (٢) سورة الأحزاب ٢٣ ، ٢٤ .

ونكتفى بتقرير حقيقةٍ واحدة تاريخيّة . يقول التّاريخ إنّ مُلْك بنى أميّة فى الأندلس وبناء مسجد قرطبة ، وهو رمزٌ لغيره من المساجد ، كانا على موعد . توسّعٌ ومتانة فى الملك والمسجد معًا ، وتوقّف وضعفٌ فى الملك وفى المسجد معًا ! « فاعتبروا يا أولى الأبصار »[١] .

إنّ المؤمنين حينما خانوا الأمانة فعل خصوم الإسلام ما فعلوا ، ولو أنّ المؤمنين لم يخونوا الأمانة لما استطاع خصوم الإسلام ، لو قدّر لهم مجرّد دخول مساجد الله تعالى ، أن يدخلوا تلك المساجد إلاّ خائفين . أما آن للمؤمنين أن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا وأن يصدقوه جلّ وعلا العهد كى يصدقهم تعالى الوعد ؟ أما آن للمؤمنين أن يجاهدوا فى سبيل الله تعالى وقد أذن الله تعالى لهم بذلك بل أمرهم كى يحمى المؤمنون كلّ بيوت الله تعالى الّتى أذن جلّ وعلا أن ترفع وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ إنّ الله يدافع عن الّذين آمنوا . إنّ الله لا يحبّ كلّ خوّانٍ كفور . أُذِن للّذين يقاتَلون بأنّهم ظُلِموا وإنّ الله على نصرهم لقدير . الّذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله . ولولا دفعُ الله النّاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لَهُدِّمت صوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرًا . ولَيَنْصُرَنَّ الله مَن ينصره ، إنّ الله لقويٌّ عزيز . الّذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتَوُا الزّكاة وأمروا بالمعروفِ ونَهَوْا عَنِ المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة : ﴿ لهم فى الدّنيا خزىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾ تبيّنّا أنّها تعتبر تبيينًا للجزئيّة الكريمة السّابقة ونتيجةً حتميّةً تنتهى إليها ، لأنّ خصوم الإسلام حينما لا يستطيعون أن يدخلوا مساجد الله ، ولو صحّ لهم ذلك لما دخلوها إلاّ متسلّلين لواذًا ، فذلك معناه أنّ كلمة المسلمين هى العليا وبالتّالى فإنّ الخزى والسّوء من نصيب الكافرين ، فى الدّنيا والآخرة . وقد فسّر العلماء خزى الظّالمين فى الدّنيا بأنّه القتل والأسر وضرب الجزية ، وقد قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهمْ فشدّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْدُ وإمّا فداءً حتّى

---

(١) سورة الحشر ٢ .
(٢) سورة الحج ٣٨ ــ ٤١ .
(٣) سورة محمّد ٤ ــ ٦ .

تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والّذين قُتلوا فى سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم ، سيَهْديهم ويُصْلح بالهم ، ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم ﴾ وقال تعالى[1] : ﴿ قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ .

ولا يقف الخزى عند الحياة الدّنيا إنّما يتعدّاه إلى الحياة الأخرى والّذى تتجلّى أوضح صوره فى العذاب العظيم . فلنصغ إلى ما يقول أبو حيّان [2] : « لهم فى الدّنيا خزىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ، هذا الجزاء مناسبٌ لما صدر منهم . أمّا الخزى فى الدّنيا فهو الهوان والإذلال لهم . وهو مناسبٌ للوصف الأوّل لأنّ فيه إخمال المساجد بعدم ذكر الله وتعطيلها من ذلك . فجوزوا على ذلك بالإذلال والهوان . وأمّا العذاب العظيم فى الآخرة فهو العذاب بالنّار ، وهو إتلافٌ لهياكلهم وصورهم ، وتخريبٌ لها بعد تخريب : كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب . وهو مناسبٌ للوصف الثّانى ، وهو سعيهم فى تخريب المساجد . فجوزوا على ذلك بتخريب صورهم وتمزيقها بالعذاب . ولمّا كان الخزى الّذى يلحقهم فى الدّنيا لا يتفاوتون فيه حكمًا ، سواءً فسّرته بقتل أو سبى للحربىّ أو جزية للذّمّى لم يحتج إلى وصف . ولمّا كان العذاب متفاوتًا ، أعنى عذاب الكافر وعذاب المؤمن ، وصف عذاب الكافر بالعِظم ، ليتميّز من عذاب المؤمن »[3] .

---

(١) سورة التّوبة ٢٩ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٥٩ .

(٣) فى دراسةٍ لنا بعنوان : « معانٍ أُخَر للفظة مسجد فى القرآن الكريم » بيّنّا المعانى الجديدة للفظة مسجد وقد نشرت الدّراسة فى مجلّة التّضامن الإسلامىّ سنة ١٤٠٦ و ١٤٠٧ هـ .

الآيــة رقــم (١١٥)

قال تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله . إنّ الله واسعٌ عليم ﴾ .

المشرق موضع الشّروق . والمغرب موضع الغروب[١] .

أينما : من حروف الجزم من المجازاة[٢] تولّوا شرط . ولذلك حذفت النّون . وأين العاملة وما زائدة . والجواب فثمّ وجه الله[٣] وأين من ظروف المكان ، وهو مبنيٌّ لتضمّنه فى الاستفهام معنى حرفه وفى الشّرط معنى حرفه[٤] ومعنى أينما حيثما[٥] .

تولّوا : يقال : ولّيت وجهى وولّيته إليه بمعنى قابلته وواجهته[٦] فمعنى التّولية : الاستقبال بالوجوه[٧] .

فثمّ وجه الله : ثمّ فى موضع نصبٍ على الظّرف ومعناها البعد . إلاّ أنّها مبنيّة على الفتح غير معربة لأنّها مبهمة ، تكون بمنزلة هناك للبعد . فإن أردت القرب قلت هنا[٨] ويقول أبو حيّان[٩] : « وهو مبنيٌّ لتضمّنه معنى الإشارة وهو لازمٌ للظّرفية » .

وجه الله يقول القرطبىّ[١٠] : « اختلف النّاس فى تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسّنّة فقال الحذّاق : ذلك راجعٌ إلى الوجود والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام . إذ كان الوجه أظهر الأعضاء فى الشّاهد وأجلّها قدرا ... قال ابن عبّاس : الوجه عبارةٌ عنه عزّ وجلّ كما قال : ويبقى وجه ربّك .... وقيل : المعنى فثمّ رضا الله وثوابه كما قال : إنّما نطعمكم لوجه الله ، أى لرضائه وطلب ثوابه ، ومنه قوله ﷺ : من بنى مسجدًا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنّة »[١١] وقيل المراد بالقول : فثمّ وجه

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٧ والبحر المحيط ١ / ٣٥٥ .

(٢) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٤

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٧ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٥٥

(٥) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٢ .

(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٢

(٧) البحر المحيط ١ / ٣٦٠ .

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٧

(٩) البحر المحيط ١ / ٣٥٥ .

(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٤٧١ .

(١١) انظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٢ .

الله ، « فثمّ قبلة الله ، يعنى بذلك وجهه الّذى وجّههم إليه »[١] : « عن ابن عبّاس : فأينما تولّوا فثمّ وجه الله ، قال : قبلة الله ، أينما توجّهت شرقًا أو غربًا . وقال مجاهد : فأينما تولّوا فثمّ وجه الله ، حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة »[٢] ويقول أبو حيّان[٣] : « فثمّ وجه الله ، هذا جواب الشّرط ، وهى جملة ابتدائيّة فقيل : معناه فثمّ قبلة الله فيكون الوجه بمعنى الجهة وأضيف ذلك إلى الله حيث أمر باستقبالها فهى الجهة الّتى فيها رضا الله تعالى ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل .... والمجاز فى كلام العرب أكثر من رمل يبرين ونهر فلسطين » .

إنّ الله : ذكر لفظ الجلالة أفخم وأجزل من الضّمير ، لأنّ الضّمير يشعر بقوّة التّعلّق ، والظّاهر يشعر بالاستقلال[٤] .

﴿ واسعٌ عليم ﴾ : أى يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلّفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : واسعٌ بمعنى أنّه يسع علمه كلّ شىء ، كما قال : وسع كلّ شىءٍ علمًا . وقال الفرّاء : الواسع الجواد الّذى يسع عطاؤه كلّ شىء ، دليله قوله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كلّ شىءٍ ﴾ . وقيل : واسع المغفرة ، أى لا يتعاظمه ذنب . وقيل : متفضّل على العباد وغنىٌّ من أعمالهم[٥] قال ابن جرير[٦] : « يعنى جلّ ثناؤه بقوله : واسع ، يسع خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود والتّدبير . وأمّا قوله عليم ، فإنّه يعنى أنّه عليمٌ بأفعالهم لا يغيب عنه منها شىء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم » .

سبب النّزول .

ذكر العلماء مجموعةً من الأمور المتعلّقة بسبب النّزول ، ونحن سنذكر بعضها . يقول القرطبىّ[٧] : « اختلف العلماء فى المعنى الّذى نزلت فيه : فأينما تولّوا على خمسة أقوال :

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٨ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٦١ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٣٦٢ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٢ وانظر الكشّاف ١ / ٢٣٥ والبحر المحيط ١ / ٣٦١ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٣ .
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٧ — ٤٧٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٩ — ٤٠٢ .

فقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة فى ليلةٍ مظلمة .....
وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا . قالوا : إذا صلّى فى الغيم لغير القبلة ثمّ استبان له بعد ذلك أنّه صلّى لغير القبلة فإنّ صلاته جائزة . وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق ....

... وقال ابن عمر : نزلت فى المسافر يتنفّل حيثما توجّهت به راحلته . أخرجه مسلم عنه . قال : كان رسول الله ﷺ يصلّى وهو مقبل من مكّة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه . قال : وفيه نزلت : فأينما تولّوا فثمّ وجه الله . ولا خلاف بين العلماء فى جواز النّافلة على الرّاحلة لهذا الحديث وما كان مثله . ولا يجوز لأحدٍ أن يدع القبلة عامدًا ، بوجهٍ من الوجوه إلاّ فى شدّة الخوف ....

وقال قتادة : نزلت فى النّجاشى ، وذلك أنّه لمّا مات دعا النّبىّ ﷺ المسلمين إلى الصّلاة عليه خارج المدينة فقالوا : كيف نصلّى على رجلٍ مات وهو يصلّى لغير قبلتنا .... يصلّى إلى بيت المقدس حتّى مات ، وقد صرفت القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية ونزل فيه : وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله . فكان هذا عذرًا للنّجاشىّ . وكانت صلاة النّبىّ ﷺ بأصحابه سنة تسعٍ من الهجرة . وقد استدلّ بهذا من أجاز الصّلاة على الغائب .....

القول الرّابع ، قال ابن زيد : كانت اليهود قد استحسنت صلاة النّبىّ ﷺ إلى بيت المقدس وقالوا : ما اهتدى إلاّ بنا . فلمّا حوّل إلى الكعبة قالت اليهود : ما ولاّهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها فنزلت : ولله المشرق والمغرب . فوَجْهُ النّظم على هذا القول أنّ اليهود لمّا أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أنّ له أن يتعبّد عباده بما شاء . فإن شاء أمرهم بالتّوجّه إلى بيت المقدس ، وإن شاء أمرهم بالتّوجّه إلى الكعبة ، فَعَلَ لا حجّة عليه ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون .

القول الخامس : أنّ الآية منسوخة بقوله : ﴿ وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ ، ذكره ابن عبّاس ..... وقال قتادة : النّاسخ قوله تعالى : ﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أى تلقاءه ، حكاه أبو عيسى التّرمذىّ .

وقولٌ سادسٌ روى عن مجاهد والضّحّاك أنّها محكمة المعنى . أينما كنتم من شرقٍ

وغربٍ فثمّ وجه الله الّذى أمرنا باستقباله وهو الكعبة .... » ويقول ابن كثير[١] : « هذا والله أعلم فيه تسليةٌ للرّسول ﷺ وأصحابه الّذين أخرجوا من مكّة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم . وقد كان رسول الله ﷺ يصلّى بمكّة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلمّا قدم المدينة وجّه إلى بيت المقدس ستّة عشر شهرًا ثمّ صرفه الله إلى الكعبة بعد » .

ويقول أبو حيّان[٢] : « والّذى يظهر أنّ انتظام هذه الآية بما قبلها هو أنّه لمّا ذكر منع المساجد من ذكر الله والسّعى فى تخريبها ، نبّه على أنّ ذلك لا يمنع من أداء الصّلوات ولا من ذكر الله ، إذ المشرق والمغرب لله تعالى ، فأىّ جهة أدّيتم فيها العبادة فهى لله يثيب على ذلك ولا يختصّ مكان التّأدية بالمسجد » .

قرّرت الآية الكريمة السّابقة أنّه لا أحد أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ، وقد فهمنا أنّ الآية الكريمة تشمل مشركى قريش الّذين منعوا المصطفى ﷺ والمؤمنين عام الحديبية من زيارة البيت الحرام والطّواف به والصّلاة عنده ، كما تشمل كلّ من منع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه جلّ وعلا وسعى فى خرابها ، وعليه يكون قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله ، إنّ الله واسعٌ عليم ﴾ بمثابة التّبيين لكلّ من حيل بينه وبين بيوت الله تعالى الّتى أذن عزّ وجلّ أن ترفع ويذكر فيها اسمه تعالى ، بأنّ لله سبحانه وتعالى المشرق والمغرب ، وهما بسبب شروق الشّمس وغروبها منهما ، بمثابة الجهتين الرّئيسيتين اللّتين يندرج تحتهما سائر الجهات الأصليّة والفرعيّة ، فكلّ الجهات وكلّ ما بينها لله سبحانه وتعالى الّذى له وحده جلّ وعلا الخلق والأمر . إنّ على من حيل بينه وبين ذكر الله تعالى بالصّلاة وبالتّسبيح وما إليهما فى بيوت الله تعالى الّتى أذن أن ترفع ويذكر اسمه فيها ، عليه بأن يأتمر بأمر الله تعالى بأن يتّجه فى صلاته حيث أمره الله تعالى ، فإنّ فى هذا الامتثال رضا الله تعالى ، وإنّ فى هذه التّولية حيث أمر الله تعالى ، رضا الله تعالى وقبلته والجهة الّتى أمر عباده بأن يستقبلوها فى صلاتهم . إنّ الله سبحانه وتعالى واسع ، ويلاحظ تمشّى هذه الصّفة مع

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٧ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٦٠ .

ما هو معلوم من اتّساع كلٍّ من المشرق والمغرب . فرحمة الله سبحانه وتعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ وسعت عباده المؤمنين المتّقين الّذين حيل بينهم وبين ذكر اسم الله تعالى فى مساجده جلّ وعلا الّتى أذن أن ترفع ، فلم يكلّفهم جلّ وعلا إلاّ وسعهم ، و لم يحمّلهم ما لا طاقة لهم به ، بل وسعتهم رحمته جلّ وعلا وشملتهم مغفرته ، وها هم أولاء لا يكلّفون إلاّ ما تتّسع له قوّتهم ، ويبقى لديهم وراء ذلك من تلك القوّة فضلٌ وسعة . وبالإضافة إلى الرّحمة الّتى شملت المؤمنين المتّقين ووسعتهم من حيث القبلة والوجهة فى الصّلاة فإنّ هذه الرّحمة قد شملت الموضع ذاته ، فالله سبحانه وتعالى قد جعل للمسلمين الأرض كلّها مسجدًا وطهورا . وقد اقترن بصفة الرّحمة الواسعة ، صفة العلم الواسع المطلق ، خاصّةً وأنّنا بصدد صيغة المبالغة « عليم » فالله سبحانه وتعالى عليمٌ بكلّ شيء ، ولا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، وقد شمل علمه جلّ وعلا مصالح العباد فى دينهم ودنياهم ، أرشدهم إليها ، وسهّل لهم سبيل الوصول إليها ، ومن ذلك الاتّجاه فى الصّلاة حيث أمرهم جلّ وعلا .

وإذا كانت نظرتنا السّابقة إلى الآية الكريمة من زاوية علاقتها بما سبقها ، فإنّ فى الإمكان النّظر إليها من زاوية سبب النّزول . وهنا تتجلّى كذلك رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ وعلمه جلّ وعلا الّذى أحاط بكلّ شيء . إنّا حينما ننظر إلى ما ذهب إليه أكثر أهل العلم من كون الآية الكريمة نزلت فيمن صلّى لغير القبلة بسبب الغيم أو الظّلمة ثمّ استبان له بعد ذلك أنّه صلّى لغير القبلة فإنّه صلاته جائزة ، حينما ننظر إلى ذلك نتبيّن رحمته جلّ وعلا بعباده الّذين وسعتهم ، وعلمه المحيط بضعفهم وقلّة حيلتهم وفقرهم إلى عفوه ومغفرته . وإنّ كلاً من الرّحمة والعلم يتبيّن حينما ننظر إلى ما ذهب إليه ابن عمر رضى الله تعالى عنهما من كون الآية الكريمة نزلت فى المسافر يتنفّل حيثما توجّهت به راحلته ، فقد كان المصطفى ﷺ يصلّى وهو مقبلٌ من مكّة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه . ولا خلاف بين العلماء فى جواز النّافلة على الرّاحلة لهذا الحديث وما كان مثله ، مع إجماعهم على أنّه لا يجوز لأحدٍ أن يدع القبلة عامدًا بوجهٍ من الوجوه إلاّ فى شدّة الخوف .

بل إنّا حينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء ، قد نزلت فى النّجاشى الّذى أسلم وكان يصلّى إلى بيت المقدس حتّى توفّاه الله تعالى وصلّى عليه المصطفى ﷺ صلاة الغائب ، فإنّا يصحّ أن نتبيّن نوعًا من علاقةٍ بين هذه الآية الكريمة وبين قوله تعالى فى هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ فالله سبحانه وتعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ وأحاط علمه بكلّ شيءٍ قد وسعت رحمته هذا الملك المسلم الّذى ائتمر بأمر الله تعالى فاتّجه فى صلاته إلى بيت المقدس وقد وسع علمه جلّ وعلا حقيقة نوايا هذا الملك المسلم المؤمن التّقىّ . وها هو ذا المصطفى ﷺ يصلّى عليه صلاة الغائب .

والآية الكريمة يصحّ أن تكون ذات علاقةٍ أوثق بالآية الكريمة الآنفة الذّكر من سورة البقرة لأنّها تقوم بالدّور نفسه الّذى تقوم به تلك الآية الّتى تردّ على السّفهاء من بنى إسرائيل الّذين سألوا فى إنكار : « ما ولاّهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها » ؟ إنّ لله سبحانه وتعالى أن يتعبّد عباده بما شاء . فإن شاء أمرهم بالتّوجّه إلى بيت المقدس وإن شاء أمرهم بالتّوجه إلى المسجد الحرام .

الآيــة رقــم (١١٦)

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتّخذ الله ولدًا سبحانه . بل له ما فى السّماوات والأرض كلٌّ له قانتون ﴾ .

وقالوا اتّخذ الله ولدًا سبحانه : هذا إخبارٌ عن النّصارى فى قولهم : المسيح ابن الله . وقيل : عن اليهود فى قولهم : عزير ابن الله . وقيل : عن كفرة العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله[2] .

اتّخذ : افتعل من الأخذ[3] و « الأخذ حَوْز الشّىء وتحصيله ، وذلك تارةً بالتّناول

---

(١) الآية ١٤٣ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٢ والبحر المحيط ١ / ٣٦٢ وتفسير ابن كثير ١ / ١٦٠ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٦٢ .

نحو : معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده ، وتارةً بالقهر نحو قوله : لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ..... والاتّخاذ افتعالٌ منه »[١] .

سبحانه . سبحان منصوبٌ على المصدر ومعناه التّبرئة والتّنزيه والمحاشاة من قولهم : اتّخذ الله ولدًا . بل هو الله تعالى واحدٌ فى ذاته أحدٌ فى صفاته ، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة ، أنّى يكون له ولدٌ و لم تكن له صاحبةٌ وخلق كلّ شيءٍ ، و لم يولد فيكون مسبوقًا ، جلّ وتعالى عمّا يقول الظّالمون والجاحدون علوًّا كبيرا[٢] خرّج البخارىّ عن ابن عبّاس عن النّبىّ ﷺ قال : قال الله تعالى : (كذّبنى ابن آدم و لم يكن له ذلك . وشتمنى و لم يكن له ذلك . فأمّا تكذيبه إيّاى فزعم أنّى لا أقدر أن أعيده كما كان . وأمّا شتمه إيّاى فقوله : لى ولد . فسبحانى أن أتّخذ صاحبةً أو ولدا)[٣] ولمّا كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها فى الاستحالة أتى باللّفظ الّذى يقتضى التّنزيه والبراءة من الأشياء الّتى لا تجوز على الله تعالى قَبْل أن يضرب عن مقالتهم ويستدلّ على بطلان دعواهم . وكان ذكر التّنزيه أسبق لأنّ فيه ردعاً لمدّعى ذلك وأنّهم ادّعوا أمرًا تنزّه الله عنه وتقدّس ، ثمّ أخذ فى إبطال تلك المقالة فقال : بل له ما فى السّماوات والأرض[٤] « وفى الصّحيحين عن رسول الله ﷺ أنّه قال : (لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله . إنّهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم) »[٥] ويقول الطّبرىّ[٦] : « سبحانه يعنى بها تنزيهًا وتبريئًا من أن يكون له ولد ، وعلوًّا وارتفاعًا عن ذلك » .

بل له ما فى السّماوات وما فى الأرض : عبّر بما تغليبًا لما لا يعقل[٧] ولأنّ ما لا يعقل إذا اختلط بمن يعقل جاز أن يعبّر عن الجميع بما[٨] أى جميع ذلك مملوكٌ له ومن جملتهم من ادّعوا أنّه ولدُ الله . والولادة تنافى الملكيّة لأنّ الوالد لا يملك ولده[٩] .

كلٌّ التّنوين فى كلّ عوضٌ من المضاف إليه ، أى كلّ ما فى السّماوات والأرض[١٠] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ١٢ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٢ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٢ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٦٠ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٣٦٢ (٥) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٠ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٣ (٧) الجلالين .
(٨) البحر المحيط ١ / ٣٦٣ . (٩) البحر المحيط ١ / ٣٦٣ .
(١٠) الكشّاف ١/٢٣٥ .

قانتون : مطيعون وخاضعون[١] ومنقادون[٢] والقنوت القيام ومنه : أفضل الصّلاة طول القنوت أى القيام . والطّاعة والعبادة والدّعاء . قنت شهرًا دعا[٣] والقائل بأنّه اتّخذ ولدًا داخلٌ فى جملة السّماوات والأرض[٤] وحين ذكر الملك أتى بلفظة ما . وحين ذكر القنوت أتى بجمع ما يعقل ، فدلّ على أنّ ذلك شاملٌ لمن يعقل وما لا يعقل[٥] وجمع « قانتون » حملاً على المعنى . وكلّ إذا حذف ما تضاف إليه جاز فيها مراعاة المعنى فتجمع ، ومراعاة اللّفظ فتفرد . وإنّما حسنت مراعاة الجمع هنا لأنّها فاصلة رأس آية ، ولأنّ الأكثر فى لسانهم أنّه إذا قطعت عن الإضافة كان مراعاة المعنى أكثر وأحسن . قال تعالى : وكلٌّ كانوا ظالمين . وكلٌّ أتوه داخرين . وكلٌّ فى فلكٍ يسبحون . وقد جاء إفراد الخبر كقوله : قل كلٌّ يعمل على شاكلته[٦] ويقول الطّبرىّ[٧] : « وأولى معانى القنوت فى قوله : كلٌّ له قانتون : الطّاعة والإقرار لله عزّ وجلّ بالعبوديّة بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصّنعة والدّلالة على وحدانيّة الله عزّ وجلّ وأنّ الله تعالى ذكره بارئها وخالقُها » .

تبيّن من ذى قبل خطأ اليهود حينما قالوا ليست النّصارى على شىء ، وخطأ النّصارى حينما قالوا ليست اليهود على شىء ، وخطأ المشركين عمومًا ، مشركى العرب خصوصًا ، حينما قالوا ليست النّصارى واليهود على شىء . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تشير إلى خطأ شنيع آخر تورّطت فيه هذه الفئات ، بل إنّه أكبر خطأ يمكن أن يتورّط فيه مخلوق ، ألا وهو الزّعم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد اتّخذ ولدا « كبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا » فاليهود قد زعموا أنّ عزيرًا ابن الله ، والنّصارى قد زعموا أنّ المسيح ابن الله ، ومشركو العرب قد زعموا أنّ الملائكة بنات الله . قال

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٣ والبحر المحيط ١ / ٣٦٣ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٤ وتفسير ابن كثير ١ / ١٦٠ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٣ .

(٢) الكشّاف ١ / ٢٣٥

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٥٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤٧٣ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٣ (٥) البحر المحيط ١ / ٣٦٣ .

(٦) المحيط ١ / ٣٦٣ (٧) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٣ .

تعالى[١] : ﴿ وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ ولا زال النّصارى حتّى يوم النّاس هذا يزعمون أنّ المسيح ابن الله ، وقد نصّ القرآن الكريم فى العديد من المواضع على كفر القوم بسبب هذا القول الخطير ، وتورّطهم فى الذّنب الّذى لا يغفره جلّ وعلا ألا وهو الإشراك مع الله تعالى غيره . ومن أجل خطورة هذا القول الشّنيع والذّنب العظيم ، بادرت الآية الكريمة ، وقبل دحض هذا القول ودفعه ، إلى تنزيه الله سبحانه وتعالى ، وتقديسه جلّ وعلا وتبرئته ، « سبحانه » ويلاحظ أنّ المبادرة إلى تنزيه الله تعالى عما يقول الظّالمون ، تجيء على غرار مبادرتين سابقتين مماثلتين وذلك فى القول : ﴿ تلك أمانيّهم ﴾ إثر القول : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ﴾ وفى القول : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ إثر القول : ﴿ وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيءٍ ﴾ وبالنّظر إلى المبادرات الثلاث يتبيّن تدرّجها المستمّر من الأمر الخطر إلى الأمر الّذى يتقدّمه خطورة . إنّ الاستدراك فى المرّة الأولى ﴿ تلك أمانيّهم ﴾ يقرّر أنّ ما يقولونه ضربٌ من الأمانى . وإنّ الاستدراك فى المرّة الثّانية ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ يقرّر أنّ كلاًّ من اليهود والنّصارى كانت لديهم الجراءة الفائقة للدّرجة الّتى خالفوا معها تعاليم كلٍّ من التّوراة والإنجيل . وإنّ الاستدراك فى المرّة الثّالثة « سبحانه » يقرّر تنزيه الله تعالى عمّا ألحقه الظّالمون به جلّ وعلا علوًّا كبيرا . وقد تبيّنّا أنّ الأقوام تورّطوا فى الذّنب الّذى لا يغفره جلّ وعلا ، وهو الإشراك معه جلّ وعلا غيره . وقد قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصّمد . لم يلد و لم يولد . و لم يكن له كفوًا أحد ﴾ .

ويأتى بعد التّنبيه والاستدراك الإضراب عمّا زعم الظّالمون : ﴿ بل له ما فى السّماوات والأرض كلٌّ له قانتون ﴾ وهذا الرّدّ على القائلين ذو شقّين . الشّقّ الأوّل ويمثّله القول : ﴿ بل له ما فى السّماوات والأرض ﴾ فللّه سبحانه وتعالى وحده لا شريك كلّ ما فى

---

(١) سورة التّوبة ٣٠ (٢) سورة النّحل ٥٦ .

السّماوات والأرض ، فله جلّ وعلا وحده لا شريك له الخلق والأمر . ومن بين المملوكين للذّات العليّة المشركون مع الله تعالى غيره ومعبودوهم . والشّقّ الثّانى ويمثّله القول : ﴿ كلٌّ له قانتون ﴾ وهو يتجاوز الملكيّة المطلقة الّتى يقرّرها الشّقّ الأوّل ، إلى تقرير منتهى القنوت لله تعالى بمعنى الطّاعة والخضوع كلٌّ وفق الطّريقة الّتى فطره الله تعالى عليها كى يعبّر عن طاعته المطلقة لله تعالى وخضوعه التّام ، إن لم يكن بلسان المقال والأفعال فبلسان الحال . فإذا كان المؤمن التّقىّ يتجلّى قنوته على النّحو الّذى بيّنه قوله تعالى[1] : ﴿ أمّن هو قانتٌ آناء اللّيل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه ﴾ وبهذا يتجلّى القنوت وطاعة الله تعالى فى قيام اللّيل مصلّيًا داعيًا ، وهو قيامٌ يدلّ على سواه من مظاهر طاعة العبد لله تعالى ، فإنّ غير المؤمن يتجلّى خضوعه راضيًا أو مرغمًا فى نفاذ كلّ ما قضى الله تعالى عليه . وقريبٌ من هذا النّوع من الخضوع حظّ ما لا يعقل ، والمعروف أنّ مثل هذا النّوع من الخضوع والطّاعة عبّر عنه فى العديد من المواضع فى القرآن الكريم بالسّجود وذلك فى مثل قوله تعالى[2] : ﴿ ألم تر أنّ الله يسجد له من فى السّماوات ومن فى الأرض والشّمسُ والقمرُ والنّجومُ والجبالُ والشّجرُ والدّوابّ وكثيرٌ من النّاس وكثيرٌ حقّ عليه العذاب ، ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكْرِم . إنّ الله يفعل ما يشاء ﴾ .

الآيــة رقــم (١١٧)

قال تعالى : ﴿ بديع السّماوات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنّما يقول لـه كـن فيكون ﴾ .

بديع السّماوات والأرض : مبدعها . وإنّما هو مفعل صرّف إلى فعيل كما صرّف المؤلم إلى أليم والمسمع إلى سميع . ومعنى المبدع المنشىء والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد ، ولذلك سمّى المبتدع فى الدّين مبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره ، وكذلك كلّ محدثٍ فعلاً أو قولاً لم يتقدّمه فيه متقدّم فإنّ العرب تسمّيه مبتدعًا[3] وبديع

---

(١) سورة الزّمر ٩ (٢) سورة الحج ١٨ (٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٤

على وزن فعيل للمبالغة ، واسم الفاعل مبدع[١] وارتفاع بديع على أنّه خبر مبتدأ محذوف[٢] والبديع النّادر الغريب الشّكل . بَدُعَ يَبْدُع بداعةً فهو بديع ، إذا كان نادرًا غريب الصّورة فى الحسن ، وهو راجعٌ لمعنى الابتداع ، وهو الاختراع والإنشاء[٣] والعرب تقول : ابتدع فلانٌ الرّكىّ[٤] إذا استنبطه . وفلانٌ بِدْعٌ فى هذا الأمر . قال الله تعالى : ما كنت بِدْعًا من الرّسل . أى ما كنت أوّل[٥] .

قضى : قال علماؤنا : قضى لفظٌ مشترك يكون بمعنى الخلق . قال الله تعالى : فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين . أى خلقهنّ . ويكون بمعنى الإعلام . قال الله تعالى : وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب . أى أعلمنا . وتكون بمعنى الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ﴾ . ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الحكم . ومنه سمّى الحاكم قاضيًا . ويكون بمعنى توفية الحقّ . قال الله تعالى : فلمّا قضى موسى الأجل ويكون بمعنى الإرادة كقوله تعالى : ﴿ فإذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون ﴾ . أى إذا أراد خلق شىء[٦] « أى إذا أراد إنشاء أمرٍ واختراعه »[٧] .

أمرًا: الأمر واحد الأمور وليس بمصدر أمر يأمر[٨] أى «إذا قدّر أمرًا وأراد كونه»[٩] بيّنت الآية الكريمة السّابقة ضمنًا أنّ لله سبحانه وتعالى الخلق والأمر ، فهذا القول : ﴿ بل له ما فى السّماوات والأرض ﴾ يتعلّق بالخلق ، فللّه ما فى السّماوات والأرض ملكًا وخلقًا وعبيدا ، وهذا القول : ﴿ كلٌّ له قانتون ﴾ يتعلّق بالأمر ، فكلّ ما فى السّماوات والأرض مطيعٌ لأوامر الله تعالى خاضعٌ لإرادته . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها معمّقةٌ لهذين المعنيين ، الخلق والأمر ، وهى تتكوّن من شقّين ، كلٌّ منهما يتعلّق بأحد المعنيين على التّوالى . وهذا هو الشّقّ المتعلّق بالخلق . قال تعالى : ﴿ بديع السّماوات

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٧٤ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٦٤ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٥٥
(٤) الرّكىّ (بفتح الرّاء وكسر الكاف) والرّكايا جمع الرّكيّة وهى البئر ذات الماء .
(٥) معجم مقاييس اللّغة « بدع » ١ / ٢٠٩ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٥ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٦٤ (٨) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٥ .
(٩) تفسير ابن كثير ١ / ١٦١ .

والأرض ﴾ وهذا القول يتجاوز تقرير الملكيّة فى الآية الكريمة السّابقة ، إلى تقرير خلق الله تعالى السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابق ، وإيجادهما غايةً فى الكمال والجمال . إنّ لفظة بديع كما عرفنا تدلّ على معنيين اثنين . أحدهما الإيجاد على غير مثالٍ سابق . وآخرهما تمام الحسن والجمال . والمعروف أنّ كلّ شيءٍ فى هذا الوجود قد قدّره الله تعالى تقديرًا ، فهو يقوم بدوره الّذى خلقه الله تعالى من أجله خير قيام ، وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ ما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوت ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ وخلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرا ﴾ والمعروف كذلك أنّ كلّ شيءٍ فى هذا الوجود له حظّه من الجمال ، ولا يستثنى أىّ شيءٍ من هذه القاعدة[٣] وثمّة العديد من الآيات الكريمات الّتى أشارت إلى الجمال والزّينة والحسن . وإنّ لكلٍّ من السّماوات والأرض حظّهما الموفور من الجمال والزّينة . وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة هذه تجىء إثر الآية الكريمة الّتى نَعَت على الّذين قالوا اتّخذ الله ولدًا ، نستطيع أن نفهم من تقرير الآية الكريمة خلق الله سبحانه وتعالى السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابقٍ معنًى عميقًا ومغزىً بعيدا . إنّ المخلوقات حينما يوجدها الله سبحانه وتعالى على غير مثالٍ سابق ، ففى ذلك الدّليل القوىّ على مثل قوله عزّ من قائل[٤] : ﴿ ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير ﴾ إنّ ذلك من باب الأولى والأحرى . يقول أبو حيّان[٥] : « ثمّ ذكر بداعة السّماوات والأرض وأنّها مخلوقة على غير مثال . فكما أنّه لا مثال لهما فكذلك الفاعل لهما لا مثال له ، ففى ذلك إشارةٌ إلى أنّه يمتنع الولد إذ لو كان له ولدٌ لكان من جنسه . والبارىء لا شيء يشبهه فلا ولد له » .

وهذا هو الشّقّ المتعلّق بالأمر . قال تعالى : ﴿ وإذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون ﴾ إنّ الآية الكريمة السّابقة إذا كانت فى القول : ﴿ كلٌّ له قانتون ﴾ قد قرّرت خضوع ما فى السّماوات والأرض طوعًا أو كرهًا لأمره جلّ وعلا فإنّ هذه الآية الكريمة

---

(١) سورة الملك ٣ . (٢) سورة الفرقان ٢ .

(٣) بيّنا وجهة النّظر هذه فى الدّراسة الّتى ذيّلنا بها دراستنا المتأمّلة لسورة الأحزاب بعنوان « بين الحقيقة والجمال » .

(٤) سورة الشّورى ١١ . (٥) البحر المحيط ١ / ٣٧١ .

فى شقّها الثّانى تتجاوز هذا المعنى إلى تقرير القدرة المطلقة للذّات العليّة الّتى لها وحدها الأمر فطاعة المخلوقات طوعًا أو كرها . إنّ الله سبحانه وتعالى إذا قدّر أمرًا وأراد كونه فإنّما يقول له كن فيكون ، لا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه جلّ وعلا . وحينما نتبيّن كذلك أنّ الآية الكريمة هذه تجيء إثر الآية الكريمة الّتى نعت على الّذين قالوا اتّخذ الله ولدًا ، والمعروف أنّ أتباع عيسى عليه السّلام اليوم من أكثر عباد الله تعالى الّذين تورّطوا فى هذا الخطأ الشّنيع والذّنب العظيم وذلك بزعمهم أنّ عيسى ابن مريم عليه السّلام ابن الله « كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا » حينما نتبيّن ذلك نتذكّر على الفور مثل هذه الآية الكريمة الّتى تنبّه أتباع عيسى عليه السّلام إلى غلوّهم وإلى تورّطهم فى الذّنب الّذى لا يغفره جلّ وعلا ألا وهو الإشراك مع الله تعالى غيره . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى خلق عيسى عليه السّلام الّذى لا أب له بقوله جلّ وعلا « كن » وإنّ الله سبحانه وتعالى خلق من قبل آدم عليه السّلام الّذى لا أب له ولا أمّ ــ وهذا أعجب من خلق عيسى عليه السّلام بلا أب ــ بقوله جلّ وعلا « كن » إنّ آدم عليه السّلام وإنّ عيسى عليه السّلام وإنّ الملائكة الكرام ، وإنّ السّماوات والأرض وما فيهنّ رهائن قول الفعّال لما يريد الّذى له وحده جلّ وعلا الخلق والأمر « كن فيكون » لا رادّ لقضائه جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه ، فكيف يصحّ عقلاً أن يتورّط المسيحيّون فى الزّعم بأنّ عيسى عليه السّلام ابن الله واليهود فى الزّعم بأنّ عزيرًا ابن الله ومشركو العرب ومن لفّ لفّهم فى الزّعم بأنّ الملائكة بنات الله . إنّ كلّ هذه المخلوقات رهن قول الفعّال لما يريد كونى فتكون .

وثمّة مسألةٌ أخرى نودّ أن نشير إليها وهى أنّ مثل هذا القول : « كن فيكون » من قبيل تقريب المعانى لنا نحن البشر المحدودى القدرة ، المقهورى الإرادة ، القاصرى الإدراك ، وذلك باللّغة الّتى تعتبر فى حقّنا خير وسيلة للفهم بينما هى العاجزة بطبعها . إنّ مثل هذا القول : « كن فيكون » أريد منه إيصال المعنى المراد فى أسرع وسيلة ألا وهى

---

(١) سورة آل عمران ٥٩ .

اللّغة وأخصر تعبيرٍ فيها ، وإلاّ فإنّ ثمّةَ تبيينًا لمثل هذا القول وتوضيحًا فى مثل قوله تعالى[١] : ﴿ إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر . وما أمرنا إلاّ واحدةٌ كلمحٍ بالبصر ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ ولله غيب السّماوات والأرض ، وما أمر السّاعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب ، إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

الآيــة رقــم (١١٨)

قال تعالى : ﴿ وقال الّذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الّذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبُهُمْ ، قد بيّنّا الآيات لقومٍ يوقنون ﴾ .

لولا بمعنى هلاّ تحضيض .... وليست هذه لولا الّتى تعطى منع الشّىء لوجود غيره . والفرق بينهما عند علماء اللّسان أنّ لولا بمعنى التّحضيض لا يليها إلاّ الفعل مظهرًا أو مقدّرًا . والّتى للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر[٣] .

﴿ لولا يكلّمنا الله ﴾ : هلاّ يكلّمنا الله بنبوّة محمّد ﷺ فنعلم أنّه نبىٌّ فنؤمن به[٤] .

﴿ الّذين من قبلهم ﴾ : اليهود والنّصارى فى قول من جعل الّذين لا يعلمون كفّار العرب ، أو الأمم السّالفة فى قول من جعل الّذين لا يعلمون اليهود والنّصارى ، أو اليهود فى قول من جعل الّذين لا يعلمون النّصارى[٥] .

﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ : فى الكفر بربّهم والفرية عليه وتحكّمهم على أنبياء الله ورسله عليهم السّلام[٦] .

﴿ لقومٍ يوقنون ﴾ : الإيقان وصفٌ فى العلم يبلغ به نهاية الوثاقة فى العلم ، أى من كان موقنًا[٧] ويقول الرّاغب[٨] : « اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدّرايــة وأخواتها ، يقال : عِلْمٌ يقين ولا يقال معرفةُ يقين ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم ،

---

(١) سورة القمر ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) سورة النّحل ٧٧ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٩ .
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٧٩ .
(٥) تفسير القرطبىّ ٤٧٩ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٨ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٦٧ .
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ٥٥٢ .

وقال : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .... » .

الآية الكريمة الثّالثة عشرة بعد المائة سوّت بين اليهود الّذين قالوا ليست النّصارى على شيء والنّصارى الّذين قالوا ليست اليهود على شيءٍ وبين الّذين لا يعلمون فى صفة الجهل أو صفة عدم العلم ، لأنّ اليهود والنّصارى فى ذلك القول خالفوا الكتاب السّماوىّ الّذى بين أيديهم ، فأشبهوا الّذين قالوا مثل ذلك وهم ليسوا أهل كتابٍ سماوىّ كمشركى العرب ومن لفّ لفّهم من الّذين قالوا بغير علم . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن هؤلاء الّذين لا يعلمون ، وكأنّها تعنى مشركى العرب وكفّار قريشٍ فى المقام الأوّل ، وكأنّها تعنى وراء ذلك كلاًّ من اليهود والنّصارى الّذين شبّهت الآية الكريمة الثّالثة عشرة بعد المائة قولهم بقول الّذين لا يعلمون ، لأنّ المشركين إذا فقدوا العلم السّماوىّ أصلاً فإنّ اليهود والنّصارى فقدوا ثمرة ذلك العلم ومن هنا كان التّشابه أو التّساوى .

وماذا قال أولئك الّذين لا يعلمون أصالةً أو محاكاة ؟ « لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية » والمعنى هلاّ يكلّمنا الله سبحانه وتعالى فى شأن نبوّة محمّدٍ ﷺ ويبيّن لنا أنّه رسوله ، على غرار كلامه جلّ وعلا للملائكة الأطهار وموسى كليم الله تعالى ! وما دام الّذين لا يعلمون هم كفّار قريشٍ فى المقام الأوّل ، فلنصغ إلى ما يقول القرآن بشأن تعنّتهم وعنادهم واقتراحاتهم غير الجادّة الّتى لا أوّل لها ولا آخر ، والّتى لا يصحّ عقلاً تحقّق بعضها ، والّتى يصحّ عقلاً تحقّق بعضها ، ولكنّ البرّ الرّحيم لم يشأ تحقيقها لأنّه جلّ وعلا لم يشأ استئصال شأفتهم فقد سبق إلى علمه جلّ وعلا أنّهم بتحقّق ما طلبوا من آياتٍ لن يؤمنوا ، لأنّ رفضهم أن يؤمنوا ليس بدافع الحاجة للاستزادة من الآيات البيّنات ، وهل ثمّة آياتٌ بيّنات تتقدّم آى الذّكر الحكيم الّذى نزل بلسانٍ عربّي مبين ، وهم أئمّة الفصاحة وأرباب البيان ؟ إنّما كان رفضهم أن يؤمنوا بدافع العناد والتّعنّت . لقد جاء بشأن عدم إرادته جلّ وعلا أن يعذّبهم عذاب الاستئصال قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ وجاء بشأن تعنّت كفّار مكّة وعنادهم قوله

(١) سورة الأنفال ٣٣ وانظر هذا المعنى فى مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٢٧ .

تعالى[١] : ﴿ ولقد صرّفنا للنّاس فى هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتّى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعًا . أو تكونَ لك جنّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتُفجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا . أو تُسْقِطَ السّماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفًا أو تأتِىَ بالله والملائكة قبيلا . أو يكونَ لك بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى فى السّماء ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتابًا نقرؤه ، قل سبحان ربّى هل كنتُ إلاّ بشرًا رسولا . وما منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أن قالوا أبَعَثَ الله بشرًا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السّماء ملكًا رسولا . قل كفى بالله شهيدًا بينى وبينكم . إنّه كان بعباده خبيرًا بصيرًا ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزِل علينا الملائكة أو نرى ربّنا . لقَدِ استكبروا فى أنفسهم وعتَوْا عتوًّا كبيرا ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذى نُزّل عليه الذّكرُ إنّك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذن منظرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

ولنصغ وراء ذلك إلى ما يقول القرآن الكريم بشأن تعنّت أهل الكتاب ، اليهود منهم فى المقام الأوّل . قال تعالى[٤] : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السّماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً فاخذتهم الصّاعقةُ بظلمهم ثمّ اتّخذوا العِجْلَ من بعد ما جاءتهم البيّنات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانًا مبينا ﴾ .

ولعلّنا تبيّنّا تشابه الأقوال بسبب تشابه القلوب فى الكفر والعناد والتّعنّت ، ولعلّنا تبيّنا التّحوّل المستمرّ فى الآيات الكريمات إلى القرآن الكريم باعتباره أكبر آيات المصطفى ﷺ ، ومعجزته الكبرى الخالدة ، ولأنّ القوم إذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربىٍّ مبين ، والّذى تحدّاهم المصطفى ﷺ ، وهم اللّسنون الخصمون ، بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورةٍ واحدة مثله فعجزوا وفرّوا من الميدان المتفوّقين فيه إلى ميدان القتال والحتوف ومجال الرّماح وسلّ السّيوف ، إذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الّذى نزل

---

(١) سورة الإسراء ٨٩ — ٩٦ .
(٢) سورة الفرقان ٢١ .
(٣) سورة الحجر ٦ — ٩ .
(٤) سورة النّساء ١٥٣ .

باللّسان العربيّ المبين لسانهم ، فهل سيؤمنون بأيّ آيةٍ أخرى يصحّ عقلاً تحقّقها وتتأخّر حتمًا عن القرآن توضيحًا وتبيينًا ؟ الجواب بطبيعة الحال معروفٌ . إنّه بالنّفي .

فلنمش خطوةً خطوةً مع الاقتراح ومع الرّدّ . فمع الاقتراح أوّلاً . « لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية » إنّ القوم يبدأون بطلب أكبر المستحيلات ، أن يكلّمهم الله تعالى ، وذلك معناه ضمنًا أن يروه جلّ وعلا جهرةً . وحينما يكون الطّلب مستحيلاً تحقيقه ، يكون ذلك دليلاً على تعنّت القوم ولهوهم ولعبهم وعدم جدّهم . فإذا تحوّلنا إلى الطّلب الآخر تبيّنا أنّهم يريدون أن تأتيهم آية . وقد عرفنا أنّ كلّ آية يصحّ عقلاً تحقّقها ، هي تقلّ عن القرآن الكريم بيانًا في حقّ القوم أرباب الفصاحة وأئمّة البيان ، وقد جاء في سورة العنكبوت[1] قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آياتٌ من ربّه ، قل إنّما الآيات عند الله وإنّما أنا نذيرٌ مبين . أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلى عليهم ، إنّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقومٍ يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا يعلم ما في السّماوات والأرض . والّذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ وانظر إلى الجملة الّتي تجيء على ألسنة القوم « تأتينا » والمعروف أنّ جملة « أتى » لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، فهم يريدون آية غايةً في البعد والسّموّ والارتفاع ، وهم يظنّون أنّ الآيات المادّيّة المحسوسة الممكنة التّحقيق تتقدّم القرآن الكريم ، وهم يجهلون أنّ مصيرهم إلى الفناء ومآلهم إلى الاستئصال لو تحقّقت الآيات المادّيّة المحسوسة الّتي طلبوا ، فقد سبق في علمه جلّ وعلا أنّهم مع مجيء الآيات الّتي طلبوا سيظلّون كافرين وقد جرت سنّته جلّ وعلا باستئصال الكافرين بعد تحقّق الآيات الّتي طلبوا ، وقد جاء في سورة يونس[2] قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذين حقّت عليهم كلمةُ ربّك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كلّ آيةٍ حتّى يروا العذاب الأليم . فلولا كانت قريةٌ آمنَتْ فنفعها إيمانُها إلاّ قومَ يونُسَ لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾ وهم وراء ذلك يجهلون أنّ القرآن الكريم أعظم الآيات وكبرى المعجزات . إنّهم هنا يطلبون آيةً ماديّةً محسوسة مقيّدة الدّلالة بزمانٍ ومكانٍ وأناسٍ معيّنين ، ويتركون آياتِ الله تعالى البيّنات الّتي هي في صدور الّذين أوتوا

---

(١) الآيات ٥٠ ــ ٥٢ .

(٢) الآيات ٩٦ ــ ٩٨ .

العلم ، والّتى هى آياتٌ كُثْر .

وعلى عادة عددٍ من آيات هذا القسم من السّورة فى تنبيهاتها واستدراكاتها فى مثل قوله تعالى[١] : ﴿ تلك أمانيّهم ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ وقولـه تعالى[٣] : ﴿ سبحانه ﴾ يجىء تنبيهٌ فى قوله تعالى : ﴿ كذلك قال الّذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ والمعنى مثل ذلك القول الدّالّ على التّعنّت والعناد وعدم الإيمان قال الّذين من قبلهم من الّذين لا يعلمون أصالةً أو تقليدا . ويبنى على هذا التّنبيه المتعلّق بتشابه الأقوال تبيين السّبب فى ذلك التّشابه وتعيين مصدره ، إنّه تشابه القلوب فى الكفر[٤] والعمى والجهل[٥] وقد قال عزّ من قائل[٦] : ﴿ كذلك ما أتى الّذين من قبلهم من رسولٍ إلاّ قالوا ساحِرٌ أو مجنون . أتواصَوْا به بل هم قومٌ طاغون . فتولّ عنهم فما أنت بملوم . وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين ﴾

ويتوّج التّنبيه ، ويردف التبيين ، بقمّةٍ ثالثةٍ ، يُضرَب فيها الذّكر صفحًا عن القوم الّذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويتّجه فيها الحديث إلى المؤمنين المتقّين الموقنين ، الّذين استمعوا القول فاتّبعوا أحسنه ، آمنوا بالقرآن المجيد ، وانكبّوا على تلاوته وتدبّره ، وترجموا تعاليمه إلى عمل ، وانتهوا بفضل الله تعالى من العلم إلى أعلى درجاته ، إلى مرحلة اليقين بأنّ هذا كلام ربّ العالمين ، نزل به الرّوح الأمين على قلب خاتم النّبيّين والمرسلين بلسانٍ عربىّ مبين ، فتحقّقت لهم بفضل الله تعالى السّعادة فى الحياتين الطيّبتين الأولى والآخرة ، وقد قال عزّ من قائل[٧] : ﴿ من عَمِل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة فى قمّة ردّها الثّالثة وفى تذييلها ﴿ قد بيّنّا الآيات لقومٍ يوقنون ﴾ تشير إلى آيات القرآن الكريم الكثيرة ، ومن العجيب أن يطلب القوم آيةً ماديّةً واحدة أو حتّى آيات ، ولكنّهم هم المتعنّتون . وتتّجه الآية الكريمة إلى الثمرة الحقيقيّة اليانعة

---

(١) الآية ١١١ (٢) الآية ١١٣ (٣) الآية ١١٦

(٤) معانى القرآن للفرّاء ٧٥ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٠٨ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٣٦٧ (٦) سورة الذّاريات ٥٢ ــ ٥٥ .

(٧) سورة النّحل ٩٧ .

النّاجحة لمنهج القرآن الكريم . إنّهم الموقنون الّذين يجدون فى القرآن الكريم كلّ مرغوب لهم ومطلوب .

الآيــة رقــم (١١٩)

قال تعالى : ﴿ إنّا أرسلناك بالحقّ بشيرًا ونذيرًا ولا تُسْأل عن أصحاب الجحيم ﴾ .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى قد بيّن الآيات الواضحات الّتى تهدى إلى الطّريق الّتى هى أقوم للمؤمنين المتّقين أهل التّثبّت فى الأمور الحريصين على الحصول على علم اليقين . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث إلى شخص الرّسول الكريم الّذى جاء اليقين عن طريقه والهدى بواسطته . إنّ الرّسول الكريم بسبب وضوح الطّريق وظهور معالم الصّراط المستقيم ليكاد يهلك نفسه حزنًا لانصراف الكافرين عن دين الإسلام وتكذيبهم لشخصه الكريم . وها هى ذى الآية الكريمة تسلّى هذا الرّسول الكريم وتسرّى عنه بتقرير وظيفته ﷺ وهو المرسل من ربّه بالهدى ودين الحقّ دين الإسلام ، وهو الّذى أنزل عليه القرآن الكريم آيات الله تعالى البيّنات . إنّ منتهى عمله ﷺ أن يبلّغ الرّسالة وأن يؤدّى الأمانة ، فمن صدّقه وآمن به بشره بالجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض ، والّتى أعدّت للمتّقين ، والّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومن كذّبه وكفر بما جاء به من ربّه عزّ وجلّ أنذره بالنّار الّتى وقودها النّاس والحجارة ، والّتى أعدّها الله سبحانه وتعالى للكافرين .

وبما أنّ الحديث يدور فى مجموعه عن هؤلاء الّذين تشابهت قلوبهم على الكفر والتّعنّت والعناد ولهذا تشابهت قلوبهم ، فقد كان فى تذييل الآية الكريمة تجاوزٌ للمؤمنين المتّقين المبشّرين الفائزين ، إلى مصير أولئك الكافرين . وإنّ التّذييل : ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ يظلّ يتحدّث إلى المصطفى ﷺ ، ويتجاوز النّار الّتى يستحقّها الكافرون وبئس القرار ، إلى تقرير خلود أولئك الكافرين فى النّار ، الّتى شبّت وقودها[1] فذلك هو

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ١ / ٤١٠ .

معنىَ الجحيم . قال الزّجّاج : الجحيم هى النّار الشّديدة الوقود[١] إنّ أولئك الكافرين ، لخلودهم فى النّار الّتى تلك صفتها ، أصبحوا بمنزلة الأصحاب لها ، الباقين فيها ، الملازمين لها . ويعتبر التّذييل امتدادًا لتسلية النّبىّ ﷺ والتّسرية عنه . وهذا المعنى عبّر عنه القرآن الكريم فى أكثر من موضع . قال تعالى[٢] : ﴿ وإمّا نرينّك بعض الّذى نَعِدُهم أو نتوفّينّك فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّارٍ فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ فذكّر إنّما أنت مذكّر . لست عليهم بمصَيْطِر . إلاّ من تولّى وكفر . فيعذّبه الله العذابَ الأكبر . إنّ إلينا إيابَهُم . ثمّ إنّ علينا حسابَهُم ﴾ .

« عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التّوراة فقال : أجل . والله إنّه لموصوف فى التّوراة بصفته فى القرآن : ﴿ يا أيّها النبىّ إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا ﴾ وحرزًا للأمّيّين . أنت عبدى ورسولى ، سمّيتك المتوكّل . لا فظّ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسّيّئة السّيّئة ولكن يعفو ويغفر . ولن يقبضه الله حتّى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ، فيفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا . انفرد بإخراجه البخارىّ »[٥] .

الآيــة رقــم (١٢٠)

قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ، قل إنّ هدى الله هو الهدى ، ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ .

تتّبع : منصوب بأن ، ولكنّها لا تظهر مع حتّى ، قاله الخليل ، وذلك أنّ حتّى خافضةٌ

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٥٦

(٢) سورة الرّعد ٤٠ .

(٣) سورة ق ٤٥

(٤) سورة الغاشية ٢١ ــ ٢٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٢ .

للاسم كقوله : حتّى مطلع الفجر ، وما يعمل فى الاسم لا يعمل فى الفعل البتّة ، وما يخفض اسمًا لا ينصب شيئًا[١] .

ملّتهم : الملّة اسمٌ لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسنة رسله ، فكانت الملّة والشّريعة سواء . فأمّا الدّين فقدّ فرّق بينه وبين الملّة والشريعة . فإنّ الملّة والشّريعة ما دعا الله عباده إلى فعله . والدّين ما فعله العباد عن أمره[٢] والفرق بين الملّة وبين الدّين أنّ الملّة لاتضاف إلاّ إلى النّبىّ عليه الصّلاة والسّلام الّذى تُسْند إليه نحو : اتّبعوا ملّة إبراهيم ، واتّبعت ملّة آبائى . ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله ولا إلى آحاد أمّة النّبىّ ﷺ ، ولا تستعمل إلاّ فى حَمَلة الشّرائع دون آحادها ، لا يقال : مِلّةُ الله ولا يقال : مِلّتى ومِلّةُ زيدٍ كما يقالُ دينُ الله ودينُ زيد ، ولا يقال : الصّلاةُ مِلّة الله . وأصل المِلّة مِنْ أَمْلَلْتُ الكتاب ، قال تعالى : ولْيُمْلِلِ الّذى عليه الحقّ — فإن كان الّذى عليه الحقّ سفيهًا أو ضعيفًا أولا يستطيع أن يُمِلّ هو فليُمْلل وليّه . وتقال الملّة اعتبارًا بالشىء الّذى شرعه الله ، والدّين يقال اعتبارًا بمن يقيمه إذ كان معناه الطّاعة[٣] .

من المعروف أنّ المصطفى ﷺ صادف فى سبيل الدّعوة إلى الله تعالى الكثير من العنت والمشقّة ، وبخاصّةٍ من كفّار قريش فى مكّة ، المنافقين واليهود فى المدينة . وكان حزنه ﷺ كبيرًا لإعراض الكثير من النّاس عن دعوة الحقّ للدّرجة الّتى يكاد يهلك نفسه معها بسبب حزنه عليه الصّلاة والسّلام لإعراض النّاس وانصرافهم . وقد سرّى الكثير من آى الذّكر الحكيم عنه ﷺ وسلاّه ، ومن هذه الآيات الآيات الكريمة السّابقة الّتى بيّنت له عليه الصّلاة والسّلام فى هذه السّورة المدنيّة أنّ وظيفته تقف عند مجرّد البلاغ ولا تتعدّاه ، لأنّ ما جاوز البلاغ خارجٌ عن حدود طاقته عليه الصّلاة والسّلام . وكأنّ الآية الكريمة تشمل اليهود الّذين كانوا يسكنون المنطقة آنذاك ، والّذين كان المصطفى ﷺ يلحّ فى دعوتهم إلى صراط العزيز الحميد ، والمعروف أنّ إعراض القوم عن دعوة الحقّ كان شديدًا ، إذ لم يدخل فى الإسلام وينل شرف صحبة المصطفى ﷺ من القوم سوى العدد الأقلّ من

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٨٠ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٨٠ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٧١ .

القليل . وتشير الرّوايات إلى أنّ اليهود كانوا يسألون المسالمة والهدنة ، ويعدون النّبىّ ﷺ بالإسلام ، فأعلمه الله تعالى فى الآية الكريمة الّتى تحوّلنا إليها أنّهم لن يرضوا عنه حتّى يتّبع ملّتهم وأمره بجهادهم(١) .

والآية الكريمة وإن اتّجه فيها الخطاب أساسًا إلى المصطفى ﷺ فإنّ المراد فى الحقيقة أمّته ﷺ . وياله من درسٍ عظيمٍ تلقيه الآية الكريمة على أمّة الإسلام . وليت أمّة الإسلام تعى هذا الدّرس جيّدًا وتترجمه إلى عمل . إنّ الآية الكريمة تبيّن للمصطفى ﷺ أساسًا ، ولكل فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك ، أنّ الشّىء الوحيد الّذى يَرْضى عنه اليهود والنّصارى أن يرتدّ — لا سمح الله — عن دين الإسلام وأن يدخل فى اليهوديّة كى يرضى عنه اليهود ، أو أن يدخل فى النّصرانيّة كى يرضى عنه النّصارى ، وسبق أن عرفنا قول اليهود ليست النّصارى على شىء ، وقول النّصارى ليست اليهود على شىءٍ وهم يتلون الكتاب ، وذلك معناه أنّ الدّخول فى أحد الدّينين ، بعد الارتداد — لا سمح الله — عن دين الإسلام ، فيه إغضابٌ للفريق الآخر . ومن أجل التّنبيه إلى رضا أحد الفريقين فقط وإلى غضب الفريق الآخر جاء فى السّياق « لا » الّذى يمكن الاستغناء عنه لولا التّنبيه المراد ، وذلك فى القول : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تبيّن للمسلمين بصريح العبارة أنّ كلّ التّنازلات الّتى يقدّمونها لليهود ، ما دامت لا تنتهى بالمسلمين إلى الارتداد — لا سمح الله — عن دين الإسلام ، الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده وأتمّ به النّعمة عليهم ، فإنّ كلّ تلك التّنازلات لا يقنع بها اليهود ولا ترضيهم . وإنّ الشّىء ذاته يقال عن النّصارى . وإنّ لدينا نحن المسلمين خلال العصور الكثير والكثير من الأدلّة الّتى تضمّ إلى العديد والعديد من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ومنها الإنباء بالغيب . إنّ اليهود — مثلاً — الّذين دعاهم المصطفى ﷺ بذاته الشّريفة إلى الإسلام ما ازدادوا بالإحسان وبمرور الأزمان إلاّ تماديًا فى الشرّ والطّغيان . وكان علاج القوم أخيرًا إخراجهم . وإنّ النّصارى فى إسبانيا لم يرضهم إلاّ أن يتنصّر المسلمون أو أن يقتّلوا أو أن يطردوا من الأندلس المسلمة . يقول فى هذا الشّأن — مثلاً —

---

(١) انظر تفسير القرطبى ص ٤٨١ .

الأستاذ مصطفى السّباعى[1] : « ولا أريد أن أُفيض فى المقارنة بين أخلاق الفاتحين المسلمين فى الأندلس وحسن معاملتهم للمغلوبين ، ورحمتهم بهم ، ورعايتهم لشعورهم ، وبين ما فعله الإسبان حين استولوا على غَرْناطة (آخر مملكة للإسلام فى الأندلس) بعد أن أعطوا المسلمين بضعةً وستّين عهدًا باحترام ديانتهم ومساجدهم وأموالهم وأعراضهم ، ولكنّهم لم يرعوا عهدًا ، و لم يفوا بذمّة ، و لم يعِفّوا عن سفك الدّماء وإزهاق الأرواح وسلب الثّروات . فلم يكد يمضى على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة حتّى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤ بتحويل جميع مساجد إسبانيا إلى كنائس ! و لم تمرّ بعد ذلك أربع سنواتٍ أخرى حتّى لم يبق فى إسبانيا مسلمٌ واحد ! هذا هو وفاؤهم بالعهود . وذلك هو وفاؤنا » .

﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾[2] .

إنّ خصوم الإسلام ، بنصّ الآية الكريمة ، لا يرضيهم أن يظلّ المسلمون مسلمين لله ربّ العالمين . وإنّ اليهود والنّصارى بالذّات لا يرضيهم مجرّد الارتداد عن الإسلام — لا سمح الله — إنّما الّذى يرضى اليهود أن يتحوّل المسلمون يهودا ، ويرضى النّصارى أن يتحوّل المسلمون نصارى . وإنّ رضا كلٍّ من الطّرفين يعنى غضب الآخر . وانظر إلى الجملة الّتى تستعملها الآية الكريمة « تتّبع » إنّ المطلوب هو الاتّباع المطلق التّام .

وما معنى أن يعمل خصوم الإسلام من اليهود والنّصارى جاهدين من أجل إخراج المسلمين من الإسلام أوّلا ؟ معناه أنّ الخروج — لا سمح الله — من الإسلام هو مرحلةٌ أوّليّة ضروريّة فقط . ويليها وفق أهواء القوم وأعمالهم مراحل تنتهى بالمرحلة الّتى ترضيهم والّتى نبّه عليها القرآن الكريم ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا حذرهم ويعضّوا على الدّين الّذى رضيه جلّ وعلا لهم بالنّواجذ .

وعلى عادة عددٍ من آيات هذا القسم من السّورة الكريمة فى التّنبيه العاجل والاستدراك الفورىّ ، على نحو ما مرّ بنا من قبل ، يجىء الجواب الفورىّ على القوم متعلّقًا بالقول أوّلا ، متعلّقًا بالفعل ثانيًا . وهذا هو الرّدّ المتعلّق بالقول . قال تعالى : ﴿ قل إنّ هدى الله هو

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١٠٨ .

(٢) سورة الحشر ٢ .

الهدى ﴾ والخطاب متّجهٌ أساسًا إلى المصطفى ﷺ ، متّجه بعد ذلك إلى كلّ فردٍ على حدةٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة . والمعنى قل يا محمّد ، إنّ هدى الله سبحانه وتعالى الّذى أرسلنى به ، وهو دين الإسلام الّذى أكمله الله تعالى للمسلمين ورضيه لهم وأتمّ به النعمة عليهم ، والّذى يعتبر القرآن الكريم معجزته الكبرى ، والسّنّة النّبويّة المطهّرة المفتاح لفهمه ، إنّ هدى الله سبحانه وتعالى الّذى جاء به محمّد بن عبد الله ﷺ هو الهدى الّذى لا هدى سواه بل أهواء وضلالات . « وجاء الهدى معرّفًا بالألف واللاّم وهو ممّا قيل إنّ ذلك يدلّ على الحصر . فإذا قلت : زيدٌ العالم ، فكأنّه قيل هو المخصوص بالعلم والمحضور فيه ذلك »[1] .

وهذا هو الرّدّ المتعلّق بالفعل . قال تعالى : ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالَكَ من الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ . إنّ اللاّم فى « لئن » تسمّى الموطّئة والمؤذنة ، وهى تشعر بقسمٍ مقدّرٍ قبلها ، ولذلك يُبْنى ما بعد الشّرط على القَسَم لا على الشّرط إذ لو بُنى على الشّرط لدخلت الفاء فى قوله : مالك[2] وبهذا يتبيّن أنّ الخطاب ليس بسيطًا ولا عاديًّا ولكنّه المبتدىء بالقسم . ومن الّذى يُقْسم ؟ إنّه الله الّذى لا إله إلاّ هو والّذى قال فى محكم كتابه[3] : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ . وقد عرفنا أنّ الخطاب وإن كان متّجهًا إليه ﷺ فإنّ المقصود أمّته ﷺ .

والآية الكريمة تصف ما يرضى اليهود والنّصارى بأنّه مجموعةٌ من الأهواء ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم ﴾ والله سبحانه وتعالى يقول[4] : ﴿ ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدىً من الله ، إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين ﴾ بينما تصف الآية الكريمة ما جاءه ﷺ من ربّه بأنّه العلم . والمراد بالعلم دين الإسلام[5] وحينما نضع الهوى الّذى جاء به اليهود والنّصارى فى جانب ونقارن بينه وبين الهدى الّذى جاء من الله تعالى تتّضح النّعمة

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٦٨ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٦٩ .
(٣) سورة آل عمران ٨٥ (٤) سورة القصص ٥٠ .
(٥) الكشّاف ١ / ٢٣٦ والبحر المحيط ١ / ٣٦٩ .

الكبرى الّتى امتنّ الله تعالى بها على المسلمين بدرجةٍ أكبر . وانظر إلى جملة جاء فى القول ﴿ جاءك من العلم ﴾ ومعروفٌ أنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب . ومعروفٌ أنّ العلم إنّما جاء المصطفى ﷺ بواسطة الوحى السّماوىّ المتمثّل فى القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة .

ويقابل افتراض اتّباع الهوى وهجر العلم عدم وجود الولّى ولا النّصير الحقيقىّ ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالك من الله من ولٍّ ولا نصير ﴾ إنّ هذا التّعبير الشّديد إذا صحّ أن يتّجه أساسًا إلى المصطفى ﷺ وهو النّبىّ المعصوم ، فمن باب الأوْلى أن يكون معناه شديدًا بل هو أشدّ فى حقّ أتباعه ﷺ فيما لو فرض أنهم خالفوا تعاليم الآية الكريمة وظنّو أن اليهود والنّصارى يرضون منهم بأقلّ من الارتداد عن الإسلام والدّخول فى اليهوديّة أو النّصرانيّة . إنّ على المسلمين أن ييأسوا من رضا اليهود والنّصارى كجماعة بأقلّ ممّا نصّت عليه الآية الكريمة . أمّا إذا لم يتمسّك المسلمون بتعاليم الآية الكريمة ، فليثقوا أنّهم مهما يتسامحوا مع القوم ، ويقدّموا من تنازلاتٍ فإنّ القوم لا يرضيهم سوى الشّىء الوحيد الّذى نصّت عليه الآية الكريمة ، ولن يكون اليهود ولا النّصارى لهم أولياء ولا ناصرين ، وإنّ الطّامّة الكبرى والبليّة العظمى أنّ الله سبحانه وتعالى ليس وليًّا لأولئك الّذين اتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء ، وليس راعيًا لمصالحهم ، كما أنّه جلّ وعلا ليس نصيرًا لهم ولا مؤيّدا ولا معينًا . إنّ أولئك ليس لهم من الله سبحانه وتعالى من ولّى يتولّى أمورهم ولا نصير ، يمنعهم ويحميهم . وفى المقابل هنالك المؤمنون المتّقون العزيزون بالله تعالى وبرسوله وبدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . « قال قتادة : وبلغنا أنّ رسول الله ﷺ كان يقول : لا تزال طائفةٌ من أمّتى يقاتلون على الحقّ ظاهرين لا يضرّهم من خالفهم حتّى يأتى أمر الله . قلت : هذا الحديث مخرّجٌ فى الصّحيح عن عبد الله بن عمرو »[1] وقد « تمسّك بهذه الآية جماعةٌ من العلماء منهم أبو حنيفة والشّافعىّ وداود وأحمد بن حنبل على أنّ الكفر كلّه ملّةٌ واحدةٌ لقوله تعالى : ﴿ ملّتهم ﴾ ، فوحّد الملّة ، وبقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ . وكقوله عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٣ .

السلام : لا يرث المسلم الكافر . وذهب مالك وأحمد فى الرّواية الأخرىٰ إلى أن الكفر ملل ، فلا يرث اليهودىّ النّصرانىّ ولا يرثان المجوسىّ، أخذًا بظاهر قوله عليه السّلام : لا يتوارث أهل ملّتين »[١] .

وبشأن قوله تعالى : ﴿ مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ يقول الطّبرىّ[٢] : « مالك من الله من ولّى ، يعنى بذلك ليس لك يا محمّد من ولّى يلى أمرك وقيّم يقوم به ، ولا نصيرٍ ينصرك من الله فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته ويمنعك من ذلك إن أحلّ بك ذلك ربّك » .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين رشدهم إنّه على كلّ شىءٍ قدير .

الآيــة رقــم (١٢١)

قال تعالى : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

آتيناهم : أعطيناهم . « واختصّ العطيّة والعطاء بالصّلة ، قال : هذا عطاؤنا ، يعطى من يشاء . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعْطَوْا منها »[٣] « وكلّ موضعٍ ذُكِرَ فى وصف الكتاب آتينا فهو أبلغ مِنْ كلّ موضعٍ ذُكِر فيه أوتوا ، لأنّ أوتوا قد يقال إذا أولِىَ مَنْ لم يكن منه قبول ، وآتيناهم يقال فيمن كان منه قبول »[٤] .

الكتاب : لفظة الكتاب تنطبق على كلٍّ من التّوراة والإنجيل والقرآن . وبالنّظر إلى الآية الكريمة السّابقة الّتى تتحدّث عن اليهود والنّصارى يتّضح أنّ لفظة الكتاب يصحّ أن تتّجه إلى كلٍّ من التّوراة والإنجيل . وبالنظر إلى الآية الكريمة التّالية الّتى يتّجه فيها الخطاب إلى بنى إسرائيل يتّضح أنّ لفظة الكتاب يصحّ أن تتّجه إلى التّوراة . ونحن أميل إلى كون لفظة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٨١ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٦٣ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٠ (٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ٣٣٨ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ٩٨ .

كتاب تتّجه إلى كلٍّ من التّوراة والإنجيل ، لأنّ اصطلاح أهل الكتاب يتّجه إلى اليهود والنّصارى ، ويفهم من الآية الكريمة أنّها تتحدّث عن أهل الكتاب الّذين آتاهم الله تعالى إيّاه . « عن قتادة : هم اليهود والنّصارى ، وهو قول عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير »[١] يقول ابن جرير[٢] : « ... فالّذى هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجّهًا إلى أنّه خبرٌ عمّن قصّ الله جلّ ثناؤه فى الآية قبلها والآية بعدها وهم أهل الكتابين التّوراة والإنجيل » وقد بيّن الطّبرىّ كذلك أنّ صحاب محمّد ﷺ لم يجر لهم ذكر فى الآية قبلها وفى الآية بعدها ، ولا جاء بأنّ ذلك خبر عنهم أثرٌ يجب التّسليم له[٣] .

يتلونه : حال لا يستغنى عنها وفيها الفائدة[٤] والتّلاوة لها معنيان ، القراءة لفظًا والاتّباع فعلاً[٥] والمقصود هنا الاتّباع فعلاً لأنّه ثمرة تلاوة الكتاب وتدبّر معانيه ولهذا قيل فى معنى يتلونه حقّ تلاوته : « يتبعونه حقّ اتّباعه ، باتّباع الأمر والنّهى ، فيحلّلون حلاله ويحرّمون حرامه ويعملون بما تضمّنه . قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعالى : والقمر إذا تلاها ، أى اتّبعها . وهو معنى قول ابن عبّاس وابن مسعود رضى الله عنهما »[٦] .

« أما قوله حقّ تلاوته فمبالغة فى صفة اتّباعهم الكتاب ولزومهم العمل به كما يقال : إنّ فلانًا لعالمٌ حقّ عالم ، وكما يقال : إنّ فلانًا لفاضل كلّ فاضل »[٧] .

أولئك يؤمنون به : خبر عن المبتدأ : الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته[٨] .

ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون : « يعنى جلّ ثناؤه بقوله : ومن يكفر به ، ومن يكفر بالكتاب الّذى أخبر أنّه يتلوه من آتاه من المؤمنين حقّ تلاوته . ويعنى بقوله جلّ ثناؤه : يكفر ، يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوّة محمّد ﷺ وتصديقه ويبدّله فيحرّف

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٣
(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١١ .
(٣) انظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١١
(٤) البحر المحيط ١ / ٣٦٩ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٧٠ .
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٤٨٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١١ ، ٤١٢ وتفسير ابن كثير ١ / ١٦٣ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٢ وانظر معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٦ .
(٨) انظر تفسير ابن كثير ١ / ١٦٤ وتفسير القرطبى ص ٤٨١ .

تأويله ، أولئك هم الّذين خسروا علمهم وعملهم فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله واستبدلوا بها سخط الله وغضبه »[١] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ اليهود والنّصارى الّذين يتّبعون أهواءهم وأنفسهم الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم لا يرضيهم إلاّ أن يتحوّل المسلمون لله ربّ العالمين — لا سمح الله — يهودًا أو نصارى . وهذه الآية الكريمة التّالية تفصّل ما أجملت الآية الكريمة السّابقة ، وتكمل ما بدأت ، وتعلّل ما إليه أو مأت . إنّها تقرّر أنّ الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب السّماوىّ ، التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام ، ويلاحظ فى القول : ﴿ آتيناهم ﴾ استعمال نون العظمة فى حقّ الذّات العليّة ، حالة كونهم تالين لكلٍّ من الكتابين السّماويّين حقّ التّلاوة ، قارئين لهما آناء اللّيل وأطراف النّهار ، متدبّرين كلاً منهما متأمّلين ، مستكنهين معنى كلٍّ منهما مستخلصين ، مترجمين إلى عملٍ المعنى الّذى انتهوا إليه والتّفسير الّذى نطقت به النّصوص ، دون لىٍّ لأعناق النّصوص من أجل معنىً فى الذّهن أو هوًى للنّفس ، ودون تحميلٍ للنّصوص فوق طاقتها ، فثمّة الإفراط ، أو دون طاقتها وذلك التّفريط ، ولكن تترك النّصوص وطبيعتها ، والمعانى وسجيّتها ، وبالتّالى يكون القوم قد جمعوا بين التّلاوة والتّدبّر والعلم والعمل ، إنّ أولئك الأقوام الّذين تلك صفاتهم هم الّذين يؤمنون بكلٍّ من الكتابين السّماويّين .

وما الّذى سوف يتبيّن أولئك الّذين يتلون الكتابين حقّ التّلاوة بالمعنى الّذى تبيّنا والّذين نعتتهم الآية الكريمة بأنّهم المؤمنون بالكتابين السّماويّين ؟ سوف يتبيّنون فى كلٍّ من الكتابين السّماويّين نعت محمّد بن عبد الله ﷺ وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ ورحمتى وَسِعَتْ كلّ شيءٍ فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون . الّذين يتّبعون الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبّات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم . فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه

---

(١) تفسير الطّبرى ١ / ٤١٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .

واتّبعوا النّور الّذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ « وفى الصّحيح : والّذى نفسى بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمّة يهودىّ ولا نصرانىّ ثمّ لا يؤمن بى إلاّ دخل النّار »[1] .

وبهذا يتبيّن أنّ من مقومات تلاوة اليهود والنّصارى التّوراة والإنجيل الإيمان بكلّ ما فيهما من تعاليم ، وترجمة تلك التّعاليم إلى عمل . إنّه بدون العلم الصّحيح والعمل الصّحيح لن يكون ثمّة إيمانٌ صحيح . وإنّ من أهمّ مقوّمات العلم الصّحيح الإيمان بما تضمّنته التوراة وتضمّنه الإنجيل من نعتٍ للمصطفى ﷺ ، وإنّ من أهمّ مقوّمات العمل الصّحيح إتّباع المصطفى ﷺ الرّسول النّبىّ الأمّى خاتم الأنبياء والمرسلين ، الّذى بعثه الله تعالى بدين الإسلام . إنّه بدون تصديق المصطفى ﷺ والإيمان برسالته واتّباعه والدّخول فى دين الإسلام الّذى جاء به من ربّه لن يكون ثمّة إيمانٌ حقيقىّ بالتّوراة والإنجيل . إنّما هنالك كفرٌ بهما وهو ما نصّت عليه الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ والمعنى أنّ من يكفر بكلٍّ من الكتابين السّماويّين بسبب كفره برسالة محمّد بن عبد الله ﷺ الّتى أمرت التّوراة وأمر الإنجيل بالإيمان بها فأولئك هم الخاسرون ، والملاحظ أنّ هذه الجزئيّة الكريمة يجىء فيها النّصّ على النّتيجة أو المسبّب ألا وهو الخُسْران ، وفى ذلك دليلٌ على أنّ الفوز من نصيب المؤمنين ، وهو ما لم تذكره الجزئيّة الأولى اكتفاءً بما ذكرته الجزئيّة الثانية من خسران للكافرين . والملاحظ كذلك أنّ الجزئيّة الأولى الكريمة يجىء فيها النّص على الوسيلة أو السّبب ألا وهو تلاوة الكتابين حقّ التّلاوة والإيمان بهما ، وفى ذلك دليلٌ بشأن الجزئيّة الثّانية على أنّ الكافرين لم يتلوا الكتابين حقّ التّلاوة و لم يؤمنوا بهما ، وهو ما لم تذكره الجزئيّة الثّانية اكتفاءً بما ذكرته الجزئيّة الأولى .

ويُفْهم من هذه الآية الكريمة بجزئيّتيها أنّ اليهود والنّصارى الّذين لا يرضيهم إلاّ أن يتّبع المسلمون ــ لا سمح الله ــ ملّتهم ودينهم ليسوا مؤمنين بالتّوراة والإنجيل لأنّهم لم يتْلُوا الكتابين السّماويّين حقّ التّلاوة و لم يتدبّروهما و لم يعملوا بمعناهما ومن بين معناهما اتّباع الرّسول النّبىّ الأمىّ محمّد بن عبد الله ﷺ ، بل هم كافرون بالكتابين السّماويّين متّبعون

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٤ .

أهواءهم وأنفسهم الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم . إنّهم بسبب ذلك هم الخاسرون الّذين يصدق فى حقهم قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ قُلْ هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً . الّذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدّنيا وهم يحسَبون أنّهم يُحْسِنون صُنْعا . أولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنّم بما كفروا واتّخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ يقول أبو حيّان[2] : « قصد فى الأولى إلى ذكر الحكم من غير تعليق عليه . ودلّ مقابلة الخسران على ربح من آمن به وفوزه ووفور حظّه عند الله . فاكتفى بثبوت السّبب عن ذكر المسبّب عنه . وقصد فى الجملة الثّانية إلى ذكر المسبَّب على تقدير حصول السَّبب ، فكان فى ذلك تنفيرٌ عن تعاطى السَّبب لما يترتّب عليه من المسبّب الّذى هو الخسران ونقص الحظّ » .

الآيــة رقــم (١٢٢)

قال تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى الّتى أنعمت عليكم وأنّى فضّلْتكم على العالمين ﴾ .

هذه هى ذات الآية الكريمة السّابعة والأربعين من السّورة . وهذه هى المرّة الثّالثة الّتى يخاطب بنو إسرائيل بأحبّ الأسماء إليهم « إسرائيل » الّذى معناه عبد الله أو صفوة الله وليس بيعقوب فلا يقال يا بنى يعقوب وكان خطاب بنى إسرائيل للمرّة الأولى فى الآية الكريمة الأربعين . قال تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى الّتى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإيّاى فارهبون ﴾ وفى هذه الآية الكريمة النّداء للتّنبيه على طاعة المنعم . وكان خطاب بنى إسرائيل للمرّة الثّانية فى الآية الكريمة السّابعة والأربعين ، وهى الآية المطابقة للآية الكريمة الّتى نحن بصددها . والنّداء فى كلٍّ من الآيتين الكريمتين للتّنبيه على شكر النّعم . فى هذه المرّات الثّلاث « نودى بنو إسرائيل بالإضافة إلى أبيهم الأعلى وتشريفهم بولادتهم منه . ثمّ أعرض فى معظم القرآن عن ندائهم بهذا الاسم وطمس

---

(١) سورة الكهف ١٠٣ — ١٠٦ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٠ .

ما كان لهم من نور هذا الوسم . والثّلاث هى مبدأ الكثرة . وقد اهتمّ بك من نبّهك وناداك مرّةً ومرّةً ومرّة .

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادى »[1]

وهذه الآية الكريمة الّتى تنادى بنى إسرائيل وتنبّههم إلى طاعة المنعم جلّ وعلا تشير إلى تفضيل الله تعالى القوم على عالمى زمانهم حينما كانوا أهلاً لذلك التّفضيل بفعل الأوامر واجتناب النّواهى . والمعروف أنّ الأمّة المحمّديّة قد أثبت الله تعالى لها الخيريّة المطلقة ما دامت متمسّكةً بتعاليم دينها . قال تعالى[2] : ﴿ كنتم خَيْرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

الآيــة رقــم (١٢٣)

قال تعالى : ﴿ واتّقوا يومًا لا تَجْزى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقْبَلُ منها عدلٌ ولا تَنْفَعُها شفاعةٌ ولا هم يُنْصَرون ﴾ .

ثمّة وجه شبهٍ كبير بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الثّامنة والأربعين . قال تعالى : ﴿ واتّقوا يومًا لا تَجْزِى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقْبَلُ منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم يُنْصَرون ﴾ . وكلٌّ من الآيتين الكريمتين تعرض لأربع حالاتٍ يمرّ بها المحتاجون فى الحياة الدّنيا ، وأربع مراحل يتدرّجون خلالها منتقلين من حالٍ تعذّرت إلى مرحلةٍ أخرى ربّما نفعت معها وسيلتها وآتت أكلها . وكلٌّ من الآيتين الكريمتين تعرض للحالات الأربع وفق حكمةٍ معيّنة . وإنّ كلّ الحالات أو الوسائل ممتنعةٌ يوم القيامة الّذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم .

والمراد بالعَدْل الفداء .

وثمّة تشابهٌ بين الآيتين الكريمتين تامٌّ فى الصّياغة وفى التّرتيب بشأن الحال الأولى والحال الأخيرة . وهذا هو وجه التّشابه بين الآيتين الكريمتين ﴿ واتّقوا يومًا لا تجزى

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٧١ (٢) سورة آل عمران ١١٠ .

نفسٌ عن نفسٍ شيئًا .... ولا هم يُنْصرَون ﴾ فثمّة نفيٌ أن تُغْنِى يوم القيامة نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ، وهذه هى أولى مراحل العون قياسًا على ما يجرى فى الحياة الدّنيا . فإذا كان ثمّة حقٌّ يطالب به أصحابه ، فبأداء الآخرين ذلك الحقّ عن المطالب يسقط الحقّ ويكفّ المطالبون . وثمّة نفيٌ أخيرًا لنصر العباد يوم القيامة أولئك الّذين عليهم حقوق بعد أن نفى السّياق المراحل الثّلاث السّابقة . فثمّة نفى لكلّ المراحِل الأربع الّتى يتعامل وفقها العباد فى الحياة الدّنيا .

فما هما المرحلتان اللّتان بينهما اختلاف فى التّرتيب فى الآيتين الكريمتين ، إنّهما المرحلتان الثّانية والثّالثة .

وقد جاءت الصّياغة فى الآية الكريمة الثّامنة والأربعين على النّحو التّالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ .

وجاءت الصّياغة فى الآية الكريمة الثالثة والعشرين بعد المائة على النّحو التّالى : ﴿ ولا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ﴾ .

ويمكن أن يلاحظ على الصّياغتين ما يلى :

أوّلاً : تقدّمت فى الآية الكريمة الأولى الشّفاعة على الفداء بينما تقدّم فى الآية الكريمة الثّانية الفداء على الشفاعة .

ثانيًا : جاء بشأن الشّفاعة فى الآية الأولى نفى القبول وجاء بشأن الفداء نفى الأخذ ﴿ ولا يقبل منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ بينما جاء بشأن العدل فى الآية الثانية نفى القبول وجاء بشأن الشّفاعة نفى النّفع .

ثالثًا : بالنّظر إلى نفى قبول الشّفاعة فى الآية الأولى وإلى نفى قبول العدل فى الآية الثانية يتبيّن أنّ الآيتين الكريمتين فى موضع واحدٍ وبشأن الحال الثّانية فى كلٍّ منهما قد نفتا مبدأ القبول . ومعروفٌ أنّ القبول متعلّقٌ بالابتداء ، فثمّة نفيٌ لهذا المبدأ أصلاً بشأن الشّفاعة فى الآية الأولى وبشأن العدل أى الفِدْاء فى الآية الثّانية . ويمكن أن يقال بشأن تقديم الشّفاعة فى الآية الأولى والشّفاعة هنا بمعنى الجاه ، وبشأن تقديم العدل فى الآية الثّانية ، والعدل هنا بمعنى المال ، إنّ الحكمة من تقديم الشّفاعة مرّةً ومن تقديم العدل

أخرى يعود إلى النّظرة المتغيّرة من قبل البشر لكلٍّ من الشّفاعة والعدل واختلافهم بسبب الظّروف والملابسات حول تقديم أيٍّ من هذين المظهرين الدّالّين على الجاه . وكأنّ الآية الكريمة الأولى حينما تقدّم الشّفاعة على العدل ، كأنّها تشير إلى ذلك الفريق من النّاس الّذى يقدّم الجاه على المال ، وكأنّها بهذا التّقديم تشير إلى الجاه الّذى ينبغى تقديمه على المال ، وكأنّها وراء ذلك تشير إلى هذه النّظرة الصّائبة ، وإلى أخذ بنى إسرائيل أوّل الأمر بها حينما كانوا لا زالوا متمسّكين بتعاليم موسى عليه السّلام وعمادها التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إليه . وكأنّ الآية الكريمة الثّانية حينما تقدّم العدل بمعنى الفداء أو المال ، كأنّها تشير إلى ذلك الفريق من النّاس الّذى يقدّم المال على الجاه ، وكأنّها بهذا التّقديم للمال تشير إلى ما طرأ على المقاييس من اختلاف أو اختلال ، وكأنّها وراء ذلك تشير إلى أخذ بنى إسرائيل بهذه النّظرة غير الصّائبة حينما انحرفوا بدين موسى عليه السّلام إلى يهوديّة ماديّة مسرفةٍ فى الماديّة ، وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تبعث عيسى عليه السّلام المتخصّص فى الرّوحانيّات كى تقلّم أظفار تلك الماديّة وكى يخفّف من غلوائها بعد أن انحرف أتباع موسى عليه السّلام بالدّيانة اليهوديّة عن نهجها القويم وخطّها المستقيم .

رابعًا : بالنّظر إلى تأخير نفى العدل إلى المرحلة الثّالثة فى الآية الأولى وإلى تأخير نفى الشفاعة إلى المرحلة الثّالثة كذلك فى الآية الثانية يتبيّن بشأن الآية الأولى نفى الأخذ للمال : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ ويتبيّن بشأن الآية الثّانية نفى النّفع للشّفاعة ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ فإذا تأمّلنا بشأن الآية الأولى القول : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ تبيّنّا أنّ عمليّة الأخذ للمال إنّما تكون بعد قبول مبدأ أخذه . وبالتّالى يكون ثمّة تجانسٌ فى التّأخير بين الأخذ وبين المال . أمّا الأخذ فلأنّه تالٍ لمبدأ القبول ومتأخّر . وأمّا المال فلأنّه جاء فى الآية فى المرحلة الثّالثة متأخّرًا عن الشّفاعة الّتى جاءت فى المرحلة الثّانية .

وإذا تأمّلنا بشأن الآية الثّانية القول ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ تبيّنّا كذلك أنّ عمليّة النّفع للشّفاعة إنّما تكون بعد قبول مبدأ قبولها . وبالتّالى يكون ثمّة تجانسٌ فى التّأخير بين النّفع وبين الشّفاعة . أمّا النّفع فلأنّه تالٍ لمبدأ القبول ومتأخّر . وأمّا الشّفاعة فلأنّها جاءت فى الآية فى المرحلة الثّالثة متأخّرةً عن المال .

إنّ التّقديم للمال فى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها والرّبط بينه وبين مبدأ القبول

وذلك فى القول : ﴿ ولا يقبل منها عدلٌ ﴾ وإنّ التّأخير للجاه والرّبط بينه وهو المتأخّر ذكراً وبين النّفع المتأخّر بطبعه عن مبدأ القبول وذلك فى القول : ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ ربّما كان فى كلّ ذلك الدّليل على ما طرأ على اليهود ، بسبب الابتعاد عن زمن موسى عليه السّلام وعن النّبع الصّافى ، من انحرافٍ عن الصرّاط المستقيم والنّهج القويم فأصبحت المادّة فى نظرهم مقدّمةً على كلّ شيء ، والحياة الدّنيا الّتى زيّنت لهم غاية المُنَى . وكأنّ هذا الانقلاب فى المقاييس والانعكاس فى المثل وقد سيطر كلٌّ منهما على بنى إسرائيل فى المقام الأوّل للدّرجة الّتى سبق معها إلى رُوعهم أنّ هذا المقياس معمولٌ به يوم القيامة وهذا المبدأ مقبولٌ فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود كأنّ هذا الانقلاب فى المقاييس والانعكاس فى المثل وقد تأصّلا فى أعماق القوم ورسخا فى نفوسهم ، تريد الآية الكريمة من ذكرها الحالتين الثّانية والثّالثة مخالفةً لترتيب الحالتين فى الآية الكريمة السّابقة الثّامنة والأربعين ، أن تلفت انتباه القوم إلى ذلك الخطأ الشّنيع الّذى تورّطوا فيه .

والمعروف أنّ بنى إسرائيل حتّى يوم النّاس هذا لم يزدادوا لحبّ المال إلاّ شدّة .

خامسًا : لم يطرأ على الحالين الأوّل والأخير تغيير فى الآيتين الكريمتين لأنّ فى نفى الحال الأولى نفيًا لكلّ غناء وأدنى نفع : ﴿ واتقوا يومًا لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ﴾ ولأنّ فى نفى الحال الرّابعة والأخيرة نفيًا لأىّ وسيلةٍ من الوسائل الّتى ينتصر بها العباد فى العادة . إنّ فى نفى النّصر نفيًا لكلّ وسيلةٍ غير الوسائل الثّلاث السّابقة ﴿ ولا هم يُنْصرون ﴾ إنّ فى نفى الحال الأولى نفيًا لأدنى غناءٍ يبتدأ به . وإنّ فى نفى الحال الأخيرة نفيًا لأدنى نصرٍ ينتهى إليه .

إنّ الآية الكريمة تطلب من بنى إسرائيل أن يتّقوا يوم القيامة الّذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم ، وذلك بعمل الصّالحات وتطبيق تعاليم التّوراة الّتى فيها نعت محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، والّتى تأمرهم باتّباعه عليه الصّلاة والسّلام .

وبانتهاء الآية الكريمة يكاد ينتهى الحديث المباشر عن بنى إسرائيل فى السّورة الكريمة فلا نجد عنهم بعد ذلك إلاّ ذكرًا عارضًا فى الآية الكريمة الحادية عشرة بعد المائتين ، والآيات الكريمات من السّادسة والأربعين بعد المائتين إلى الثّانية والخمسين بعد المائتين .